تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية - العدد الثالث والعشرون - أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ - الموافق شوال ١٤٠٠هـ .



الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



إبن سينا :
قائدًا للفكر
التربوي

تاريخ القهوة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية - العدد الثالث والعشرون - أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ - الموافق شوال ١٤٠٠هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٤ ل.ل.	سوريا : ٦ ل.س
العراق : ٧٠٠ فلس	ليبيا : ٨٠٠ درهم
السعودية : ٧ ريال	الكويت : ٥٠٠ فلس
الاردن : ٥٠٠ فلس	أبوظبي : ٨ درهم
دبي : ٨ درهم	قطر : ٧ ريال
البحرين : ٧٠٠ فلس	المغرب : ٥ درهم
مسقط : ٨٠٠ بيزة	بريطانيا : جنيه استرليني

الإشتراكات (بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

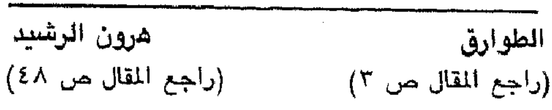
ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١ • شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 2, No. 23. Sep. 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"







● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الطوارق (راجع المقال ص ٣) — هرون الرشيد (راجع المقال ص ٤٨)

الموضوع — الصفحة

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر.


العرف القبلي
بين ابن خلدون
وقانون العشائر
د. صالح الحمارنة

لقد عرف العرب شأنهم شأن غيرهم من الشعوب النظام القبلي عرفوه منذ القدم فهو ملازم لهم مناسب لطبيعة بلادهم الصحراوية وطرق معيشتهم. فمن هنا قام النظام القبلي وسادت تقاليده والقبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها هذا النظام، وكل قبيلة تقوم مستقلة عن الاخرى وكثيرا ما ترتبط بغيرها من القبائل برابطة الدم والنسب وبالتالي تقوم رابطة المصالح المشتركة. في التضامن ضد الاخطار الطبيعية والغزو البشري وغيرها من الاخطار.

وطبيعي ان يقوم لهذا النظام عوائد واعراف وتقاليد وهذه بمجموعها ومع الايام تصبح المنظم الحقيقي لعلاقة الافراد بعضهم ببعض وعلاقتهم مع قبيلتهم بالقبائل الاخرى. بكلمة تصبح هذه التقاليد نمطاً من السلوك الحضاري ويؤدي هذا السلوك بالتالي وظيفته في التحام الجماعة وتماسكها من جهة ويقدم نمطا معينا يستخدمه الفرد في بيئته ولسد حاجته من جهة اخرى.

ولقد عالج ابن خلدون في مقدمته البداوة وأثرها بشكل مستفيض قلما نجده عند غيره من المؤرخين العرب المسلمين. وهذا طبيعي لشخصية فذه ذات فكر ثاقب كشخصية ابن خلدون الذي اكّد بعمق ان المجتمع العربي – هو من اكثر المجتمعات تأثرا بالتفاعل ما بين البداوة والحضارة.

«فالبيئة البدوية أصل البيئة الحضرية وسابقة عليها... لأن الضروري اقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه... ولأن الضروري أصل الكمالي[1]

ان الموضوع الذي أود هنا طرحه هو ان المجتمع العربي الحاضر – في شرقي البلدان العربية كما في مغربها – من اكثر المجتمعات تأثراً بالقيم البدوية، وكما يقول الدكتور علي الوردني «لا تزال هذه القيم متعلقة في اعماق نفوسنا من حيث نشعر او لا نشعر ولعل الكثير من مشاكلنا الاجتماعية ناشئة من التصادم بين القيم البدوية القديمة والقيم الجديدة التي جاءت بها الحضارة الجديدة[2].

ولقد ساعد على ذلك امور عدة واضحة فصحراء العرب الواسعة من اكبر منابع البداوة ربما في العالم كله فالبداوة اصبحت ملازمة لنا نحن العرب مرادفة لاسمنا ولهويتها...

كما وان هناك اموراً اخرى كثيرة ساعدت على تعميق روح البداوة ونظامها عندنا منها قانون العشائر الذي يطبق في كثير من البلدان العربية بجانب القانون المدني هذا القانون أي قانون المحاكم العشائرية ساعد ويساعد على المحافظة على العادات والتقاليد التي رسمتها شريعة العشائر وتقاليد البادية... وبكل بساطة أدى هذا القانون الى جعل القبائل في المجتمعات العربية كالمجتمع الاردني على سبيل المثال – جعلها تشكل كيانات قائمة بذاتها تنتمي الى تراث فكري معين... ومنقسمة على ذاتها وعن الوطن ككل. ذلك ان ولاء افراد القبيلة – كما هو معلوم – يتجه اولاً نحو قبائلهم اكثر مما يتجه نحو وطنهم الشامل. وقد وصف ذلك ابن خلدون خير وصف اذ قال «ولا يصدق دفاعهم (البدو) وذيادهم الا اذا كانوا عصبية، واهل نسب واحد، لانهم بذلك تشتد شوكتهم، ويخشى جانبهم، اذ نصرة كل واحد على نسبه وعصبيته أهم[3].

واذا كانت القبائل قد تخلت عن استقلالها السياسي، لتخضع لحكم الدولة فإنها ما تزال تحتفظ باستقلالها الاجتماعي وبشريعتها المعروفة منذ مئات السنين وهكذا رغم التطور الذي طرأ على البلاد العربية في مضمار الحضارة فقد استمر النمط العشائري في الحياة سائداً في كثير من ارجاء الوطن العربي اليوم. فالاعراف العشائرية ليست محصورة في نطاق العشائر البدوية، والقبائل الرحل في العالم العربي، بل امتد اثر المفاهيم العشائرية الى المجتمع العربي الحضري وبدرجات متفاوتة بين هذا المجتمع العربي او ذلك. وقد ادى هذا الامر (ويؤدي باستمرار) الى ظهور تناقضات في المجتمع العربي والى صراعات عنيفة ما بين التطلعات الحديثة نحو التقدم وبين الافكار والقيم القبلية التي تشد اجزاء من مجتمعنا العربي (ولا تزال) الى الوراء وتقف عائقاً قوياً دون انطلاقه.

لقد كافح الاسلام الاتجاهات القبلية،



«بحر الرمال» في صحراء الجزائر

ويظهر ذلك بقوة في مكافحته «العصبية القبلية» عصبية الجاهلية ونخوتها. واراد الاسلام احلال رابطة جديدة، بين الافراد تحل محل الرابطة القديمة رابطة الدم. وتلك هي **رابطة العقيدة والايمان**.

ويرى ابن خلدون ان الاسلام جاء بعصبية جديدة شاملة أو برابطة الدين فوحد العرب وألف بينهم واطلق الطاقات في العقول فهو يقول «حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين اكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، زحفوا الى امم فارس والروم، فابتزوا ملكهم»[٤] وهو يرى ان العصبية القوية هي بداية تكوين الملك فيضيف» «واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما آلف الله كلمة العرب على الاسلام»[٥].

اذن فقط ابدل الاسلام بفكرة الغزو في سبيل الثأر أو المرعى أو الماء فكرة الجهاد في سبيل الدين والمبدأ، والحرب المنظمة في سبيل حماية الامة والدفاع عنها. وتجاوز الاسلام الحدود القبلية بتكوين الامة التي هي فوق القبائل والتي وضعت مصلحتها فوق كل مصلحة اخرى. ومع ان القبيلة – كما يقول الاستاذ الدوري – بقيت وحدة اجتماعية فإن الرسول الكريم قد حاول ان يذيبها في الامة، واكثر من ذلك فقد ادخل الرسول صلوات الله عليه الى العرب عن طريق الدين فكرة الدولة والقانون ليقابل بهما فكرة القبيلة والعرف[٦].

الاستاذ الدوري في كتابه «مقدمة في تاريخ صدر الاسلام» عرض لنا صورة عن كفاح الاسلام، كفاح العقيدة الجديدة، ضد العصبية القبلية واسلوبها الانقسامي القديم فأشار الى وجود صراع ما بين العصبية القديمة والدين الجديد، وان هذا الصراع قد امتد طيلة فترة صدر الاسلام وقد تمثل هذا القديم في التقاليد القبلية وتمثل الجديد في الدعوة الاسلامية، فحدث صدام وصراع في زمن الرسول، واستمر هذا الصدام والصراع بعد وفاته بين هذين التيارين الرئيسيين:

التيار القبلي والتيار الاسلامي، ودارت حولهما أهم احداث التاريخ العربي في صدر

الاسلام، وكانت وجهة التيار الاسلامي نحو الجزيرة سياسيا ودينيا، وابادة عوامل الانقسام وتوسيع رقعة الاسلام وسيادة الاسس الاسلامية في حياة العامة. وابن خلدون اكد في أكثر من موضع من مقدمته وفي كتابه.

«ان سلالة تبدأ مهمتها بالاستناد على الدين تضاعف من قوة الهيئة المعنوية التي تساعد على قياسها»(٧) فالدين الذي يعلمه نبي او مبشر بالحقيقة هو القاعدة الوحيدة التي يمكن ان تشيد عليها دولة كبيرة وعظيمة»(٨).

أما اتجاه التيار القبلي فكان مقاومة الاتجاه المركزي ونحو استمرار التقاليد العربية القبلية برغم اصطدامها احيانا بالمبادىء والاتجاهات الاسلامية(٩).

ونلاحظ بوضوح المرارة التي يتحدث فيها ابن خلدون عن الهجرة التي قامت بها القبائل العربية البدوية من بني سليم في القرن الخامس هجري – الحادي عشر للميلاد **وان تشجيعهم ليلعبوا دورا في حياة المغرب الكبير سياسيا واجتماعيا كان بالحقيقة والواقع تشجيعا للتيار القبلي لدى العرب وهذا ما افجع ابن خلدون واحزنه كل الحزن.**

وكأني بالهجرة الهلالية البدوية هذه كانت بمثابة رد على التيار الاسلامي القوي الذي رافق عملية الفتوح وعصره.

لقد ضعفت الامبراطورية التي اقامها المرابطون ومن بعدهم الموحدون... امام قوة التيار القبلي، فكان الاتجاه الى تقوية هذا التيار البدوي وممثليه وذلك بمنحه الكنوز واعطائه المناطق الواسعة وان تسقط بيده المدن هذه المدن لم تجد طريقة لاحتواء هذا التيار الا ان تدخل هي نفسها في النزاع القبلي الناشب، فصارت مدن المغرب العربي الكبير تحاول الواحدة ان تقضي على الاخرى.

لقد شكل المرابطون امبراطوريتهم العظيمة خلال القرن الحادي عشر ثم في القرن الثاني عشر قامت امبراطورية الموحدين – الذين حملو القبائل العربية على القدوم الى مراكش سنة ١١٥٢، ووصلت في هذه الفترة الحضارة العربية الاسلامية الى ذروتها.



بدوية من بادية الشام تخبز في فناء خيمتها.

وفي القرن الرابع عشر كان رؤساء يجيزون لانفسهم حق التمتع باقطاعات متزايدة الاهمية. وكانت هذه الامتيازات الاميرية تضعف من السلطة المركزية التي كانت اعجز من ان تقاوم الرؤساء الكبار(١٠). فبدت في هذه مختلف ممالك الشمال الافريقي وكأنها قد فقدت القوة التي تستند اليها. لذا نرى ابن خلدون (وقد اشار بصدد هذا العصر في معرض حديثه عن وباء الطاعون الذي تفشى سنة ١٣٤٨) وجاء (أي الطاعون) الدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها(١١).

لست هنا في موضع لاستعراض التاريخ للدولة او بالحرى للدول – العربية الاسلامية والتي قامت في شرقي الخلافة او في غربها ولكن اريد ان أؤكد حقيقة سبق وان اشرت اليها هي ان العقلية القبلية والتيار القبلي الذي اثار ابن خلدون واقلقه واحزنه بقي قويا على مر العصور لدى الشعوب العربية... واثاره ما زالت باقية حتى قرننا الحالي الذي نعيشه(١٢).

ولقد كان الاستعمار الغربي الامبريالي خاصة في مطلع القرن العشرين يشجع ولمصلحته العقلية القبلية التيار القبلي في الامة العربية. فكان الاستعمار يعمل لترسيخ الاعراف القبلية ويسندها وذلك بسنّه القوانين التي تكفل استمرار ودوام هذه العقلية. هذه القوانين التي عرفت «بقانون محاكم العشائر كالتي سنت في الاردن وفي العراق وفي سوريا او في غيرها من الاقطار العربية... والتي بقي معمولاً فيها رسميا حتى وقت متأخر جدا، وبعضها يعمل بهذه القوانين حتى يومنا هذا.

والهدف من وراء ذلك واضح وضوح الشمس الا وهو الابقاء على الكيانات القبلية وانقسام الشعب الواحد في البلد الواحد الى شعبين واحد بدوي والاخر حضري. «من العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة من القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي يكون بالامصار والقرى والمدن والصدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها»[١٣]

فقوانين العشائر تمنح افراد العشائر في البلاد العربية امتيازات خاصة في المحاكمة والعقاب وتحرم باقي افراد المجتمع منها. وهذا بالذات يشكل خرقا لقواعد المساواة امام القانون او القوانين المستقرة في دساتير الدول العربية، فمثلا: اذا حوكم حضري امام محكمة نظامية فإن اقسى عقوبة لجريمة القتل مع سبق الاصرار هي الاعدام، بينما اذا حوكم بدوي وبنفس الجرمية فتطبق عليه احكام قانون محاكم العشائر - فتكون عقوبته كما كانت في الاردن - الحبس لمدة سنة واحدة او غرامة لا تزيد على خمسين دينارا.

«فطبيعتهم (البدو) انتهاب ما في ايدي الناس وان رزقهم من خلال رماحهم وليس عندهم من أخذ اموال الناس حد ينتهون اليه كلما امتدت اعينهم الى مال او متاع او ماعون انتهبوه. فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ اموال الناس وخراب العمران»[١٤].

هكذا يصف ابن خلدون، العرف القبلي فهذا العرف وتلك الشريعة اصبحت اليوم عاجزة ومتأخرة لا تصلح لملاحقة متطلبات العصر فالبداوة اصبحت اليوم صفحة تطوى واسلوباً بائداً يجب ان يدخل في ذمة التاريخ. فالبداوة التقليدية اخذت تتغير وعليها ان تتغير وذلك بأن تعمل على ان تتحول مناطق البادية (الواحات والمناطق الشبه القاحلة) تتحول الى مصادر انتاج - حيواني وزراعي فيتكافأ الامتداد السكاني للناس[١٥] تلك هي احدى المهمات الحيوية التي تواجه الحكومات والمؤسسات العربية اليوم... وبشكل ملح «ونجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها[١٦] والمجتمع كله يتحرك بهذا الاتجاه الصاعد من البداوة الى الحضارة وليس العكس».

قلنا ان البداوة صفحة تطوى ولكن قيم البادية الايجابية منها والسلبية قد تفشت ورسخت بكافة الاقطار العربية، يستوي في ذلك



فارس يمتطي حصانا عربيا اصيلا.

ريفها وحضرها. ويرد بعض المفكرين السبب في ذلك الى دخول الكثير من هذه القيم الى الاسلام نفسه ومنه تقبلها الناس كجزء من العقيدة التي استقرت في النفوس، واصبحت مع الزمن جانبا هاما في تركيبهم الخلقي والاجتماعي بشكل حقق بقاءها واستمرارها بغض عن التقدم الحضاري والاحتكاك بالغرب كذلك. ويذهب البعض الآخر فيرى ان الكثير من تلك القيم البدوية قد نشأت في ظل ظروف طبيعية وحياتية ببيئة الصحراء وان بعضها هو السبب الرئيسي في العلل الاجتماعية التي تسد السبيل امام تطور اقطار العالم العربي في مجالات متعددة[١٧].

اما كيف تحيا قيم البادية في مدننا وفي انظمتنا الاجتماعية والسياسية فالامر في منتهى الجلاء والوضوح. فقط فلنستعرض وبسرعة القطاعات الكبرى للناس في مجتمعاتنا.

اما البرجوازية في المدن العربية فهي في غالبيتها من الكمبرادورسيين الذين في جوهرهم هم تطور للبرجوازية المتخلفة والمثقلة بالفكر الزراعي القبلي، وهؤلاء هم المتحكمون في الاسواق والمقدرات. وان الاقتصاد الذي يعيش في بلدنا هو اقتصاد الخدمات لا الاقتصاد المنتج والمبرمج على الغالب. هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن العمال الزراعيين وعمال الخدمات المتواجدون جميعا في المدن العربية المتخلفة، يظلون ابناء العقلية الزراعية والقبلية المتخلفة، ما لم يتفاعلوا مع الآلة التي تكوّن بعملياتها الحسابية والهندسية الرؤية الصناعية والعقلية العلمية والعملية[١٨] وحتى النفط وهو اكبر صناعة واهمها في العالم العربي لم يقد عالمنا الى انقلاب صناعي... ولم نتفاعل معه بل قاد امتنا، على الاصح قسماً كبيراً منها، الى الترف والدعة والبطر.

ويقول ابن خلدون عن العباسيين المتأخرين «فاعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها فنبذوا الدين وراءهم فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من ايدي العرب وامكن سواهم منه»[١٩] وفي مكان آخر يقول «واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ، وعوائد الترف والاقبال على الدنيا قد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر»[٢٠]. ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين للمعاش او حصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السمون والدعة[٢١].

والذي حصل ويحصل باستمرار ان مظهر العقلية القبلية في المدن العربية قد تمثل بشيء آخر مهم في حياتنا السياسية والاجتماعية الا وهو في انشاء الكتل والشلل والتي احيانا تتسمى باسماء احزاب سياسية. هذه الكتل شجعتها بل واوجدتها كثير من الدول العربية، وهذه التجمعات تمارس نفس العملية عملية السلب والنهب «القديمة» ولكن باسلوب «جديد» هو استغلال المناصب والقوانين. والعجيب ان الروابط البسيطة مثل الرابطات العائلية والجمعيات الخيرية المختلفة من المؤسف ان هذه ايضا تأخذ لونا من الوان العشائرية والقبلية وتسير في نشاطاتها المختلفة ضمن هذا الاطار.

يقول ابن خلدون «وايضا منهم (العرب البدو) متنافسون في الرئاسة وقل ان يسلم احد منهم الامر لغيره، ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من اجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقص»[٢٢].

الاستاذ كيلاني يقرر «كان من أثر سيطرة التقاليد والاعراف القبلية في المجتمعات العربية ضعف الشعور الوطني لدى الحكام العرب وانشغالهم ببناء العصبيات عن بناء دولهم طيلة السنوات العشرين التي انقضت من الهزيمة الاولى عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧م»[٢٣].

الزعامات في البلدان العربية تكاد تكون غريبة عن الشعب وحياته ومصيره لانها مغرقة بالروح القبلية والنفعية. ضعيفة الاحساس بالروح الوطنية لا تعمل الا لبناء العصبيات الخاصة بها، فالمصلحة الشخصية فوق المصلحة العامة والشخص الموالي لا الشخص الكفء «ان الاوطان الكثيرة العصائب قل ان تستحكم فيها دولة»[٢٤] والسبب في ذلك اختلاف الاهواء وان وراء كل رأي منها هوى عصبية تمانع دونها فيكثر الانتقاص على الدولة والخروج عليها في

كل وقت وان كانت ذات عصبية، لان كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة[٢٥].

وبعد، اوليست معركتنا مع اسرائيل والامبريالية العالمية هي ايضا معركة حضارية يجب مواجهتها بغير العقلية وعيشة البطر والتفرقة وان نتمسك بحبل الله» ونتعصب لقوميتنا العربية لنواجه حركة رجعية عنصرية شرسة من الصهيونية العالمية ووليدتها اسرائيل، فهذا ابن خلدون العظيم يحذرنا قائلا:

«ان الامة اذا عليت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء، والسبب في ذلك والله اعلم ما يحصل في النفوس من انتكاس اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها»[٢٦].

المصادر والمراجع

١ - ابن خلدون: المقدمة من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الطبعة المصرية، القاهرة» ١٣٢٧هـ صفحة ١٣٧، كذلك عن طبعة بولاق المفردة.
٢ - د.علي الورداني: ابن خلدون والمجتمع العربي، من كتاب «اعمال مهرجان ابن خلدون، القاهرة ١٩٦٢، صفحة ٥٢٧.
٣ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٤٣.
٤ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٧٥ - ١٧٦.
٥ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٧٦. عبد العزيز الدوري: ابن خلدون والعرب من كتاب «اعمال مهرجان ابن خلدون» القاهرة ١٩٦٢، صفحة ٥٠٩.
٦ - عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، بيروت ١٩٦٠، صفحة ٣٧.
٧ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٧٥ - ٢٢٥.
٨ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٣٢٤. ايف لاكوست: العلاّمة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، بيروت ١٩٧٤، صفحة ١١٣.
٩ - عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام صفحة ٣٩ - ٤٠.
١٠ - ايف لاكوست: العلاّمة ابن خلدون، صفحة ٩٩ - ١٠٠.
١١ - ابن خلدون: المقدمة ٥٣١ عن لاكوست.
لاكوست: العلاّمة ابن خلدون صفحة ١٠٠ - ١٠١.
١٢ - صالح الحمارنة: الغاء قانون العشائر في الاردن ومدلوله الحضاري عن كتاب «بحوث ندوة التغير الحضاري لمنطقة الشرق الاوسط» ١١ - ١٤ ديسمبر ١٩٧٦، مركز بحوث الشرق الاوسط. القاهرة ١٩٧٦ ص.٢٨.
١٣ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٦٨.
١٤ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٩٧.
١٥ - مكي جميل: البداوة والبدو، من المقدمة بقلم محي الدين صابر، عمان ١٩٦٨ صفحة ٧ - ٨.
١٦ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٣٧.
١٧ - د.صلاح البحيري: جغرافية الصحارى العربية، عمان ١٩٧٢، ص. ١٧٥.
١٨ - صالح الحمارنة: الغاء قانون العشائر في الاردن ومدلوله الحضاري ص.٢٩ - ٣٠.
١٩ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٢٧٠ - ١٥٧.
٢٠ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٨٤ - ٨٥ - ١٥٧.
٢١ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ٨٢ - ٨٣ - ١٨٥ - ١٨٦.
٢٢ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٦٧ - ١٦٨.
٢٣ - فاروق كيلاني: شريعة الشعائر في الوطن العربي دار العلم للملايين سنة ١٩٧٢، صفحة ٢٢٢.
٢٤ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٨٢.
٢٥ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٨٢ - ١٨٣.
٢٦ - ابن خلدون: المقدمة صفحة ١٦٥.





د. علي محافظة - الجامعة الأردنية - عمان

تقديرا من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخرا في عمان ما بين ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤ - ٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ. أعد «مركز التوثيق والابحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الاهمية والاثارة. على ان تنشر متتالية في المجلة والاولوية حسب اسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال تود أن تؤكد انها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما انها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرسمية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر ونتمنى ان تستمر الجهود في جميع أنحاء الوطن العربي لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليما ثابت البنيان.

كما نود أن نشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم او ملخصا عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

في الفترة التي بدأت تأخذ الحركة الوطنية العربية في فلسطين اتجاها متصلبا في مقاومة الانتداب البريطاني والنشاط الصهيوني في البلاد، وشرعت العناصر العربية الشابة في التحرك لاخذ زمام القيادة من اللجنة التنفيذية العربية، حدثت تطورات سياسية مهمة في المانيا. اذ وصل حزب العمال الوطني الاشتراكي الالماني N. S. D. A. P. ويطلق عليه اختصارا (الحزب النازي) الى الحكم، وتولى زعيمه أدولف هتلر Adolf Hitler منصب المستشارية في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٣٣. وعرف عن هتلر وحزبه منذ بداية تكوينه عداءه السافر لليهود واليهودية. فقد جاء في مذكرة له مؤرخة في ١٦ ايلول ١٩١٩: «اللاسامية العاطفية تنتهي دوما بالمجازر. اما اللاسامية المعقولة فينبغي ان تؤدي الى كفاح منظم ومحدد بالقانون ضد الامتيازات التي يتمتع بها اليهودي والتي تميزه عن غيره من الاجانب الذين يعيشون بيننا. يجب ان يكون الهدف النهائي للاسامية المعقولة طرد جميع اليهود من المانيا».

وأصبح شعار النازيين منذئذ: **المانيا للالمان وفلسطين لليهود**. كتب هتلر في ١٧ ايلول ١٩٢١ يقول: «ليس لدينا ما نقوله لليهود او

نبحثه معهم لانهم، بصفتهم اجانب، لا حق لهم في التدخل في شؤوننا، كما انه ليس من حق اي الماني ان يهتم بسياسة الدولة اليهودية في فلسطين. لقد سلم الحزب النازي وزعيمه بالدعوة الصهيونية الرامية الى تحويل فلسطين الى وطن قومي ليهود العالم، وانكر وجود شعب عربي في فلسطين له حق الحياة في ارضه التي يعيش عليها منذ مئات السنين. وكان همهما الوحيد التخلص من اليهود الالمان. وبقي الحزب النازي على هذه الافكار حتى قيام الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦.

وشرع هتلر منذ وصوله الى الحكم بسن التشريعات والانظمة لمكافحة اليهود في المانيا واكراههم على مغادرة البلاد. فأصدر في ٧ نيسان ١٩٣٣ قانون العودة الى الوظيفة العامة Gesetz Zur Wiederstellung des Beruf-sbeamtentums بهدف تطهير اجهزة الدولة من العناصر غير المرغوب فيها من غير الآريين.

وفي اليوم نفسه صدر نظام بمنع المحامين غير الآريين من الدفاع امام المحاكم الالمانية. وصدر نظام في ٢٢ نيسان من العام نفسه لا يعترف بالاطباء غير الآريين لدى شركات التأمين الطبي. وبعد ذلك بثلاثة ايام صدرت تعليمات تحدد عدد التلاميذ والطلبة اليهود في المدارس الثانوية والجامعات الالمانية وفق نسبة عدد اليهود في المانيا. ومنذ بداية نيسان بدأت المقاطعة الالمانية للمتاجر اليهودية.

جاء الرد اليهودي على هذه التدابير في الصحيفة الصهيونية الالمانية Judische Rundschau في ٤ نيسان ١٩٣٣: «أحملوا باعتزاز النجمة الصفراء». وشنت الحركة الصهيونية في العالم حملة عنيفة على المانيا. أت مقاطعة البضائع والمنتجات الالمانية. وتشكل في لندن مجلس المقاطعة اليهودي Jewish Boycott Council وامتدت المقاطعة الى الولايات المتحدة الامريكية وتولى الدعوة اليها المحامي صموئيل اونترماير Samuel Untermayer.

اما في فلسطين فكانت ردة الفعل الصهيونية مختلفة تماما. ذلك ان اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية اوفدت حاييم ارلوسوروف Chaim Arlosoroff، رئيس المكتب السياسي في الوكالة اليهودية، الى المانيا لدراسة الوضع، فاتصل بأقطاب الصهيونية الالمان، وتم الاتفاق على ان **الحل لمشكلة اليهود الالمان هو تنظيم هجرتهم الى فلسطين وفق برنامج محدد ومتفق عليه مع الحكومة الالمانية** بحيث تشارك

لصق الماني يشهّر باليهود: هم سبب مآسي المانيا



من قادة المسلمين المشتركين في المؤتمر الاسلامي الاول بينهم السيد محمد امين الحسيني ومولانا شوكت

المانيا في تمويل هذا المشروع. وقد ردد هذا الراي آرثر روبين Arthur Ruppin في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في براغ في آب ١٩٣٣. كما اكده وحث عليه قنصل المانيا العام في القدس الهرهاينرش فولف Heinrich Wolff في رسائله العديدة الى وزارة الخارجية الالمانية. وكان هذا الحل مثاليا بالنسبة الى المانيا النازية الراغبة في التخلص من اليهود الالمان بأي ثمن.

المانيا وثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩:

إن موقف هتلر بعد وصوله الى الحكم لم يتغير حتى قيام ثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦. ففي لقاء تم بين القنصل الالماني هاينرش فولف والحاج امين الحسيني في موسم النبي موسى في نيسان ١٩٣٣ اعرب المفتي عن رغبته في ايقاف تهجير اليهود الالمان الى فلسطين، واكد الزعيم الهندي شوكت علي الذي كان يرافق المفتي عن مشاركة العرب فلسطين في هذه الرغبة. غير ان مطلب المفتي ذهب مع الريح لان المانيا لم تدخل العرب في حساباتها آنذاك.

وحصل تطور مهم في نفوس العرب بعد غزو ايطاليا للحبشة عام ١٩٣٥. اذ افتضح عجز عصبة الامم وقصور بريطانيا عن حمايتها للحبشة. وبدأ بعض العرب يعتقد ان الوقت مناسب للتحرك ضد بريطانيا والتخلص من انتدابها، وانتعشت الآمال لدى عرب فلسطين بعد ان استعادت المانيا منطقة الراين في آذار ١٩٣٦. واعتقد بعض العرب ايضا ان الحرب بين الدول الاوروبية قادمة لا محالة، وانها قد تكون الفرصة المناسبة لتحقيق اهدافهم بعشرات الآلاف وتعنت بريطانيا في رفض الاستجابة لمطالب العرب التي تحددت في ايقاف

الهجرة اليهودية، ومنع بيع الاراضي الاميرية والخاصة، وقيام حكومة وطنية تمثيلية، من الاسباب التي حركت الجماهير العربية في فلسطين وقياداتها الشابة المتمردة على القيادات الاقطاعية التقليدية واعلان الثورة.

وبينما كانت ثورة فلسطين مشتعلة عام ١٩٣٦، كان هتلر يغازل بريطانيا، سعيا الى كسب ودها ورضاها عن تنفيذ مخططاته في اوروبا. وابدى هتلر رغبته في مقابلة لويد جورج LIoyd-George فتم له ذلك في بيرغهوف Berghof في آب ١٩٣٧. وتملق هتلر بريطانيا في خطابه في الريخستاغ Reichstag (مجلس الامة الالماني) مؤكدا ان عهد المفاجآت قد ولى ولن يعود. وفي شباط ١٩٣٧ ابلغ فون ريبنتروب Von Ribbentrop مستشار هتلر الموثوق وسفيره في لندن، اللورد هاليفاكس Lord Halifax وزير خارجية بريطانيا، رغبة هتلر في التفاهم الالماني ه البريطاني. وكان القصد من هذه المساعي الحصول على وعد من بريطانيا باطلاق يد هتلر في المناطق التي يعتبرها ضمن المجال الحيوي الالماني في اوروبا الوسطى والشرقية. وكان هتلر يدرك مدى حساسية بريطانيا في كل ما يتعلق بالوضع في حوض البحر الابيض المتوسط، كما كان يعتقد ان تقديم اي عون مادي او معنوي لعرب فلسطين سوف يؤدي الى توتر في العلاقات الالمانية - البريطانية.

وعلى الرغم من هذا الموقف الحذر الذي وقفته المانيا من ثورة عرب فلسطين شنت الصحف اليهودية في فلسطين حملة على الحكومة الالمانية واتهمتها بتقديم العون المالي لعرب فلسطين وتزويدهم بالسلاح. وتناقلت الصحف الاوروبية هذه الاتهامات وروجتها على نطاق واسع.

والواقع ان اول لقاء تم بين الهيئة العربية العليا التي تولت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية منذ اعلان الاضراب العام في البلاد في نيسان ١٩٣٦، والسلطات الالمانية كان في بداية كانون الثاني عام ١٩٣٧. اذ قابل الامين العام للهيئة المذكورة محمد عزة دروزه يرافقه معين الماضي الوزير المفوض الالماني في بغداد فريتس غروبا Fritz Grobba واوضحا له ان استمرار الهجرة الى فلسطين سيجعل اليهود الاكثرية في البلاد في مدى السنوات الخمس التالية، وبذلك يتمكنون من بناء الدولة اليهودية. وان الرد على هذا الاحتمال هو قيام دولة عربية في فلسطين صديقة لالمانيا. واكد الزعيمان الفلسطينيان على ان انتصار العرب سيكون لصالح المانيا. ورد غروبا على هذه المطالب بأن الجهات الالمانية المختصة تدرس مسألة الهجرة اليهودية من المانيا وانها سوف تبلغه بقراراتها بهذا الصدد اما بالنسبة الى العون الذي يمكن ان تقدمه المانيا للحركة العربية في فلسطين فلن يتجاوز التعاطف المعنوي معها.

غير ان هذا الموقف المتحفظ جدا من الثورة الفلسطينية اثار قلق القنصل الالماني في القدس الهر دوله Doehle الذي بعث بتقرير الى وزارة الخارجية الالمانية يؤكد فيه ان تطور الحالة الداخلية في فلسطين يقتضي اعادة النظر في السياسة الالمانية. وبين القنصل الالماني ان اتفاقية هعفارا التي ابرمتها الحكومة الالمانية مع الوكالة اليهودية نظمت هجرة اليهود الالمان الى البلاد، وسهلت لهم تحويل اموالهم ووضعت احتكار استيراد المنتجات الالمانية في ايدي الوكالة اليهودية، وبذلك حالت المانيا بهذه الاتفاقية دون منح العرب امكانية استيراد المنتجات الالمانية خارج نطاق احتكار هعفارا. وحذر القنصل الالماني حكومته من مغبة سياستها التي تعرضها لخطر انضمام العرب الى صفوف اعدائها. واكد ان قيام وطن قومي لليهود في فلسطين سيجعل حياة العرب والاقلية الالمانية صعبة جدا. واقترح دوله على حكومته ايقاف الهجرة اليهودية من المانيا، والحفاظ على عواطف الود التي يكنها العرب نحو المانيا الجديدة وزعيمها باللجوء الى ما يلي:

- قيام تعاون ثقافي الماني عربي بقبول اعداد من الطلبة العرب في المعاهد العليا الالمانية.
- تنمية التعاون الصحفي بين الصحف العربية والصحف الالمانية.

وساهم التعاطف الشعبي العربي مع الثورة الفلسطينية والذي تجسد بقيام مظاهرات

التأييد للثورة في العواصم والمدن العربية. وادانة بريطانيا واستنكار سياستها من قبل كافة الاوساط الوطنية العربية، في دفع المانيا الى اعادة النظر في سياستها نحو فلسطين.

اصدر وزير الخارجية الالماني فون نويرات Von Neurath تعميما الى السفارة الالمانية في لندن والقنصلية الالمانية في القدس والمفوضية الالمانية في بغداد في الاول من حزيران عام ١٩٣٧ يحدد معالم السياسة الجديدة:

١ – ليس في صالح المانيا قيام دولة يهودية او كيان سياسي يهودي في فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ما دامت اية دولة في فلسطين عاجزة عن استيعاب يهود العالم. ولكنها ستقيم مركز قوة جديد لليهودية العالمية في ظل القانون الدولي بشكل يشبه دولة الفاتيكان بالنسبة الى الكاثوليكية السياسية او موسكو بالنسبة الى الكوفترن.

٢ – ان مصلحة المانيا تقتضي جعل اليهود متفرقين – وحين لا يوجد على الارض الالمانية اي فرد من الجنس اليهودي، لن تحل المسألة اليهودية بالنسبة الى المانيا. لقد دلت تطورات السنوات الاخيرة ان اليهودية العالمية ستكون دائما وبالضرورة العدو الايديولوجي، وبالتالي العدو السياسي لالمانيا الوطنية الاشتراكية. ولهذا فان المسألة اليهودية هي في الوقت نفسه احدى المشكلات شديدة الاهمية بالنسبة الى سياسة المانيا الخارجية. ولهذا فان لالمانيا مصلحة في تقوية العالم العربي، وذلك لموازنة احتمال ازدياد سطوة اليهودية العالمية.

٣ – ليس من المتوقع ان يؤثر التدخل الالماني المباشر بصورة جذرية على تطور المسألة الفلسطينية. ومن الافضل ان لا ندع الحكومات الاجنبية المعنية تعرف شيئا عن موقفنا.

وجاء في التعميم الموجه الى السفير الالماني في لندن اضافة تبين اهتمام الحكومة الالمانية بما يجري في فلسطين من تطورات وانها لا ترحب بقيام كيان سياسي يهودي فيها، وانها لا «تعتقد ان اقامة دولة يهودية في فلسطين سيساند الجهد المبذول لتهدئة الموقف الدولي».

اما الاضافة الى التعميم الموجه الى الوزير المفوض الالماني في بغداد فقد جاء فيها: «ينبغي التعبير بشكل اوضح من ذي قبل عن تفهم المانيا لاماني العرب القومية، ولكن دون الادلاء بأية وعود محددة».

كان من المنطقي ان يتلو هذا الاتجاه الجديد في السياسة الالمانية نحو فلسطين اعادة النظر في اتفاقية هعفارا وبدأت محاولات في هذا الصدد اشتركت فيها وزارة الخارجية الالمانية ووزارة الداخلية ومركز الرايخ للتخطيط الاقتصادي وبنك الرايخ ووزارة الاقتصاد وادارات الحزب الوطني الاشتراكي. واستمرت المشاورات طوال عام ١٩٣٧ دون ان تسفر عن اي تغيير في هجرة اليهود الالمان الى فلسطين او عن اي تبديل في نصوص اتفاقية هعفارا.

وحرصت المانيا على ان لا تتخذ موقفا واضحا مؤيدا للعرب. فبعد صدور توصيات اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بل Peel Commission) بأسبوع (اي في ١٥ تموز ١٩٣٧) قابل المفتي امين الحسيني، رئيس الهيئة العربية العليا، القنصل الالماني في القدس الهر دوله Doehle، وأبلغه معارضة عرب فلسطين العالمين العربي والاسلامي لتقسيم فلسطين، واعرب عن امله في ان يحصل عرب فلسطين على مساندة المانيا لنضالهم. وطلب من القنصل تحديدا للموقف الالماني الرسمي من تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية فيها، واعلان هذا الموقف بوسائل الاعلام الالمانية. كما اعرب المفتي عن رغبته في ارسال شخص موثوق به بصورة سرية الى المانيا للتباحث في المصالح الالمانية – العربية الاسلامية.

درست وزارة الخارجية الالمانية مطالب المفتي وقدم فون هنتغ Von Hentig رئيس الدائرة السياسية مذكرة الى سكرتير الدولة فون فايتسزيكر Von Weizsaecker اشار فيها الى تناقض المواقف العربية من التقسيم، واكد ان لا وجود للعالم الاسلامي كقوة سياسية ضاغطة، وان القوة الدولية الحقيقية هي قوة اليهود. وبناء على هذه المذكرة جاء الرد على مطالب المفتي سلبيا وموجزا جدا «زيارة الرجل الموثوق لا جدوى منها ما دام موقف الدول العربية غير موحد».

هذا وقابل زعيمان فلسطينيان من الهيئة



الوفد الفلسطيني الأول إلى لندن برئاسة موسى كاظم الحسيني

العربية العليا هما عوني عبد الهادي ومعين الماضي الوزير المفوض الالماني في بغداد فريتس غروبا وحثاه على ضرورة اهتمام حكومته بالمسألة الفلسطينية ودعم عرب فلسطين. وابدى عوني عبد الهادي رغبته في زيارة برلين فورا.

واستدعى رئيس وزراء العراق، حكمت سليمان، الوزير المفوض الالماني في بغداد في ١٧ تموز ١٩٣٧ وطلب منه ان تبذل حكومته مساعيها في اوساط عصبة الامم لمقاومة تقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية فيها كما طلب منه ان يصدر تصريح علني من احدى الشخصيات الالمانية المسؤولة ضد مشروع الدولة اليهودية. وطلب القائد العام للجيش العراقي من الهر غروبا في ٢٠ تموز ١٩٣٧ ان يتعاون القنصل الالماني العام في جنيف مع المندوب العراقي من اجل التأثير على لجنة الانتدابات الدائمة الدائمة ومجلس عصبة الامم لتأييد وجهة النظر العربية. وجاء الرد الالماني مخيبا لآمال العرب: «ان عدم توحيد الموقف العربي يجعل من المتعذر اصدار تصريح مؤيد للعرب من شخصية المانية مسؤولة. اما بشأن تعاون قنصلنا مع المندوب العراقي في جنيف فنحن لا نعارض في ذلك».

ولما طلب بعض الوطنيين السوريين من القنصل الالماني في بيروت الهر زايلر Seiler في مطلع ايلول ١٩٣٧ شراء اسلحة وذخيرة المانية لدعم الكفاح المسلح في فلسطين، مقابل دفع ثمنها بالعملة الصعبة، رحبت السلطات الالمانية بهذه الصفقة شريطة ان تتم مع شركة المانية تحدد لهذا الغرض.

وعاد المفتي امين الحسيني يلح على القنصل الالماني في القدس لارسال موفد شخصي منه الى برلين، ويطلب ان تهاجم الصحف الالمانية تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية فيها، وان تمارس المانيا نفوذها لدى الحكومة البولندية لتغير من موقفها المعادي للعرب (وبخاصة موقفها في عصبة الامم). استجابت الحكومة الالمانية للمطلب الاول. واخذت الصحف الالمانية تشن هجوما على توصيات اللجنة الملكية (لجنة بيل)، فكان ذلك سببا في احتجاج القائم بالاعمال البريطاني في برلين على هذه الحملة الاعلامية في ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٧.

وكان امين الحسيني قد تعرض لملاحقة السلطات البريطانية وفي تموز ١٩٣٧ القت هذه السلطات القبض على عدد من اعضاء الهيئة العربية العليا ونفتهم الى جزر سيشل. اما المفتي فقد افلت من ايديها ولجأ الى المسجد الاقصى. وبقي مختبئا حوالي اربعة اشهر تمكن بعدها من الهرب واللجوء الى لبنان. ومن لبنان اوفد المفتي الدكتور سعيد عبد الفتاح الامام، رئيس النادي العربي بدمشق، واحد خريجي الجامعات الالمانية، الى برلين في تشرين الثاني ١٩٣٧ حاملا معه مشروع تعاون اعلامي بين السلطات الالمانية المختصة من جهة وبين مفتي القدس امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا، والمجلس الاداري للمكتب الوطني العربي للدعاية والارشاد العام، ومجلس مدراء النادي العربي في دمشق من جهة اخرى. ويتضمن مشروع الاتفاق تنفيذ البرنامج التالي:

١ - تعضد المانيا العرب ايديولوجيا بالتعبير عن التعاطف مع حركة الاستقلال العربية في الاوساط المحلية والدولية في كل فرصة سانحة، وماديا عن طريق تزويد حركة الاستقلال العربية بالمال، وتجهيز كافة مراكز الدعاية التي يكونها الفريق العربي.

٢ - يدعم العرب المانيا في المجالات التالية:

- تنمية التجارة الالمانية في العالم العربي الاسلامي.



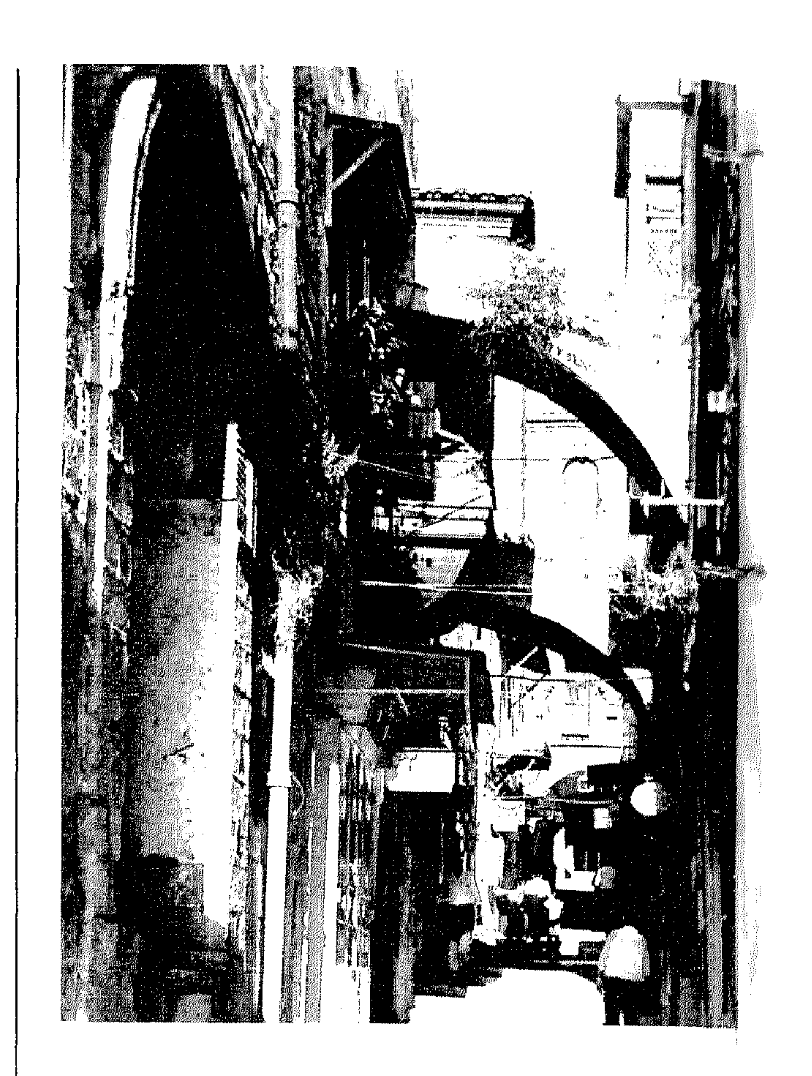
الجماهير الفلسطينية الثائرة تهاجم الجنود الانكليز

- تهيئة المناخ الودي المتعاطف مع المانيا.
- نشر الافكار الوطنية الاشتراكية (النازية) في العالم العربي الاسلامي.
- مكافحة الشيوعية التي تنتشر تدريجيا بكل الوسائل الممكنة.
- مقاطعة البضائع اليهودية.
- الاستمرار بأعمال العنف في كافة المستعمرات الفرنسية والمناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي والتي يقطنها عرب او مسلمون.
- مكافحة اقامة دولة يهودية في فلسطين بكل الوسائل الممكنة.
- نشر الثقافة الالمانية في الاقطار العربية الاسلامية.

- تشجيع استثمار رؤوس الاموال الالمانية.

غير ان هذا المشروع لم يحظ بالتأييد من جانب السلطات الالمانية فأهملته ولم تعر له بالا.

وشعر العرب في فلسطين بخيبة امل كبرى ومرارة شديدة عبرت عنها صحيفة «الجامعة الاسلامية» المقدسية المقربة من اوساط حزب الاستقلال العربي الفلسطيني، في عددها الصادر في ٩ كانون الثاني ١٩٣٨. تساءلت الصحيفة عما قدمته المانيا للعرب حتى تستحق السمعة الواسعة التي تتمتع بها بينهم. وردت هذه السمعة الى كراهية الالمان لليهود. ولكنها استدركت وقالت: ان سياسة العداء الالماني لليهود قد جاءت لنا بهجرة يهودية كبيرة الى فلسطين، واصبح اليهود الالمان يشكلون اكبر المجموعات الغربية في البلاد. وتناولت هذه الصحيفة تصدير البرتقال العربي الى المانيا مقابل استيراد بضائع المانية بضعف ثمنها الحقيقي، وما في ذلك من غبن يلحق بالتجار



من احياء القدس القديمة

العرب. وتساءلت بعد ذلك عن اسباب هذا الموقف الالماني، وعن انخداع العرب بالصداقة المزعومة.

ولم يكن قادة الثورة الشعبية الفلسطينية في الداخل على علم باتصالات المفتي بالمانيا، ولذلك حاولوا بدورهم القيام بهذا الاتصال. فقد وجه يوسف سعيد ابو درة، قائد احد فصائل الثورة في شمال فلسطين رسالة الى ادولف هتلر في منتصف كانون الاول ١٩٣٨ عن طريق القنصلية الالمانية في القدس. وتتضمن هذه الرسالة ايضاحا لموقف الثورة من اليهود والانتداب البريطاني في فلسطين.

وقام عوني عبد الهادي بتلبية دعوة المفكر والزعيم النازي الفرد روزنبرغ Alfred Rosenberg الذي تعرف به عن طريق رئيس تحرير صحيفة «اخبار ميونيخ الجديدة Nuenchener Neusten Nachrichten الهر غيزيلهر فيرزينغ Gieselher Wirsing فزار برلين واجرى مباحثات مع الزعيم النازي المذكور ومع المسؤولين في دائرة الشؤون الخارجية في الحزب النازي. والتقى في ٢١ آذار ١٩٣٩ بالهر فورمان Woermann وكيل وزارة الخارجية الالمانية. واوضح الزعيم الفلسطيني للهر فورمان ان عرب فلسطين يناضلون نضالا مستميتا ضد الانكليز من اجل نيل حقوقهم وانهم يأملون في دعم المانيا لنضالهم هذا.

وخلاصة القول ان هذه المساعي العربية لم تسفر عن اية نتيجة ايجابية. ولم يحصل عرب فلسطين على اي دعم مالي او عسكري من المانيا طوال ثورتهم الوطنية التي دامت ثلاث سنوات ونيف. واكتفت المانيا، وفي فترة متأخرة، بالاعلان عن مصارحتها لاقامة دولة يهودية في فلسطين. وتبرير الحكومة الالمانية لهذه المعارضة ان قيام دولة يهودية في فلسطين على غرار دولة الفاتيكان يشكل خطرا كبيرا على المانيا. وقد اوضح هذه النقطة المفكر النازي الفرد روزنبرغ في خطاب القاه في مدينة ديتمولد Detmold في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٩ اذ قال:

«ان اليهودية تكافح اليوم من اجل بناء دولة يهودية في فلسطين، ليس من اجل منح اليهود في العالم وطنا، وانما لاسباب اخرى. فاليهودية تسعى الى انشاء دولة صغيرة ليكون لها ممثلون في كافة دول العالم، تستطيع من خلالهم تأمين سيطرتها هناك. فقبل كل شيء يسعى اليهود الى الحصول على مركز يهودي او دولة يهودية يلتقي فيها اليهود المحتالون من كافة ارجاء العالم والذين تلاحقهم قوات الامن في الدول الاخرى، حيث يمنحون جوازات سفر جديدة تمكنهم من الانتقال الى اجزاء اخرى من العالم. ولعله من امنيات اصدقاء اليهود في العالم، وبخاصة في الديمقراطيات الغربية، ان ينتشر اليهود في كافة انحاء الارض، وان يمنحوا منطقة اخرى غير فلسطين للاستقرار ان من واجب المانيا السعي لابقاء اليهود مشردين مشتتين في كافة ارجاء العالم.»

يتبع ●

د. نقولا زيادة

المدنية السومرية

قصّة اكتشاف المدنيّة الأولى

آنية من المرمر المنقوش من عصر درقة

لا شك في ان قصص التنقيب الاثري في اقطار المدنيات الشرقية القديمة اي ارض الرافدين ووادي النيل وفلسطين ولبنان وسورية فيها من الطرائف الشيء الكثير ولكن رواية القصة كاملة امر لا تحتمله هذه الاحاديث. فلا بد، اذن، من الاقتصار على المعالم الرئيسية اقتصادا في الوقت والمجال. وسنتحدث الساعة عن ارض الرافدين.

كان اول من ضرب معولا في سبيل التنقيب الاثري في ارض الرافدين بوتا الفرنسي سنة ١٨٤٣ في كويونجك الواقعة مقابل الموصل عبر نهر دجلة. والتي ثبت فيما بعد انها هي نينوى. كما انه حفر في خورسباد التي اتضح فيما بعد انها كانت دار شاروكين اي مدينة سرجون (الثاني) الاشوري. وبعد ذلك بسنتين بدأ لايارد التنقيب في نمرود. ولما تخلى بوتا عن العمل خلفه فيه بلاس. كما ان رسام كان خليفة لايارد.

وفي اواخر العقد الخامس من القرن الماضي كان لوفتس يقوم بالتنقيب في ورقة التي اتضح فيما بعد انها إرك التوراتية اي اوروك البابلية. كما ان تشرشل حفر في سنكرا وبذلك كشف عن لارسا القديمة. ولم يمض وقت طويل حتى كان تايلور يحفر في تل المقير التي عرفت قديما باسم اور الكلدانيين، كما نقب في تل ابو شهرين وهي اريدو القديمة.

وفي العقدين الاخيرين من القرن الماضي كشف دو سارزك النقاب عن لاغاش السومرية لما حفر في تلوه. ولما كانت رموز الكتابة المسمارية قد حلت. فمعنى هذا انه لم تكد سنة ١٩٠٠ تطل حتى كانت مدينة السومريين قد احتلت مكانها تنقيبا اثريا ومدونات مسمارية آجريّة.

اما في القرن العشرين فعندنا كشفان اثريان هامان هما: حفريات اور التي قام بها وولي بين ١٩٢٢ و ١٩٢٦ والتي اخرجت كنوزا هائلة من بطون الارض كانت تضاهي ما نتج عن الكشف عن قبر توت عنخ امون في مصر. وفي العقد الخامس من القرن الحالي قامت ادارة الآثار العراقية باشراف فؤاد صفر بالحفر في تل ابو شهرين، حيث كان تايلور قد حفر قبل قرابة قرن. والذي ظهر من التنقيب الحديث هناك هو ان اريدو هي اقدم مدينة سومرية وان الاستيطان فيها يرجع الى سنة ٥٠٠٠ ق. م.

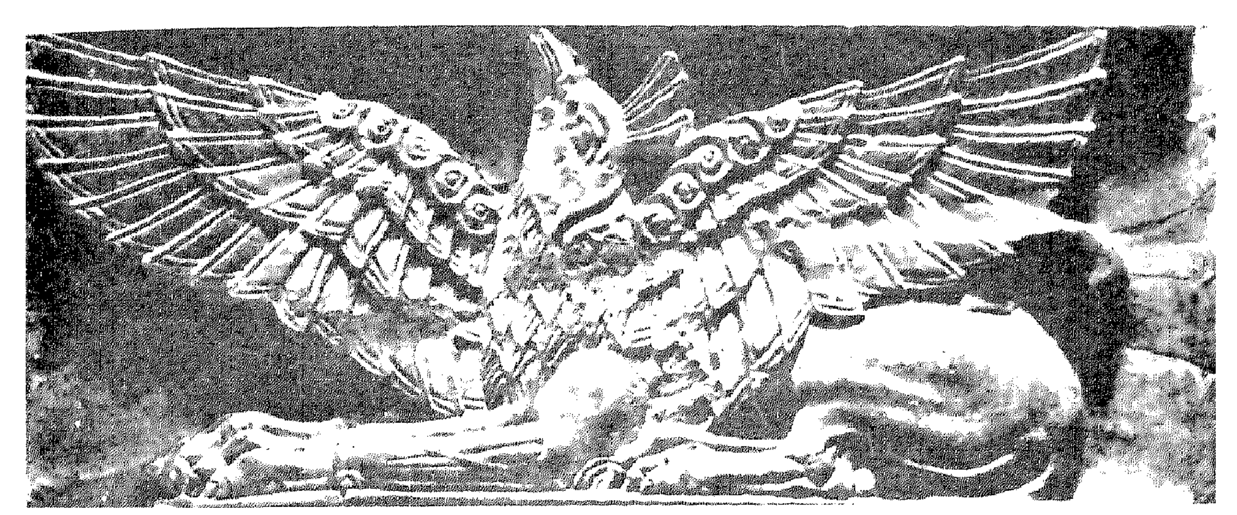
من القضايا التي واجهها علماء الآثار والمؤرخون وعلماء الانثروبولوجية مشكلة «المدنية». وبعبارة اخرى - ما هي المقاييس التي تعتبر على اساسها جماعة اي جماعة، متمدنة؟ وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان الجماعة لم يكن لها من قبل نوع من الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولكن المقصود هو الوصول الى درجة المدنية.

وقد عالج هذه القضية كثيرون. ويمكن القول بأن خلاصة ما انتهى اليه البحث هو ان الجماعة التي تعيش في مدن لا في مجتمعات زراعية قروية فقط، وهي الجماعة التي ظهر فيها تخصص مهني، وهي التي تنشيء وسائل ري على اساس من التعاون، وهي التي تتمتع مدنها بمراكز للعبادة: وهي الجماعة التي لها كتابة.

هذه الشروط، اذا جاز التعبير، تنطبق على المجتمع الذي عاش في اريدو وفي غيرها من مدن الجزء الجنوبي من ارض الرافدين. الذي عرف في العهد القديم باسم «شنعار» والذي يسميه المؤرخون اليوم «سومر». وقد نشأت هذه المجتمعات المتمدنة بين سنتي ٣٥٠٠ و ٣٠٠٠ ق.م. ويجب ان نذكر ان هذه المجتمعات المدنية انما سبقتها مجتمعات اخرى كانت تختلف حياتها باختلاف وسائل تحصيل المعاش، لكنها كلها انتهى امرها بالانتقال الى الزراعة قبل ان تقيم المدن وتتجمع فيها وحولها.

ليس الذي يهمنا في هذا الحديث قيام الاسر الحاكمة وظهور الملوك والمعارك التي حاربوها. ذلك بأن الذي نعني به الآن هو هذه المدنية الاولى في التاريخ، والاسس التي كانت الحياة تعتمدها.

واول ما يجب ان يذكر هو ان المدن



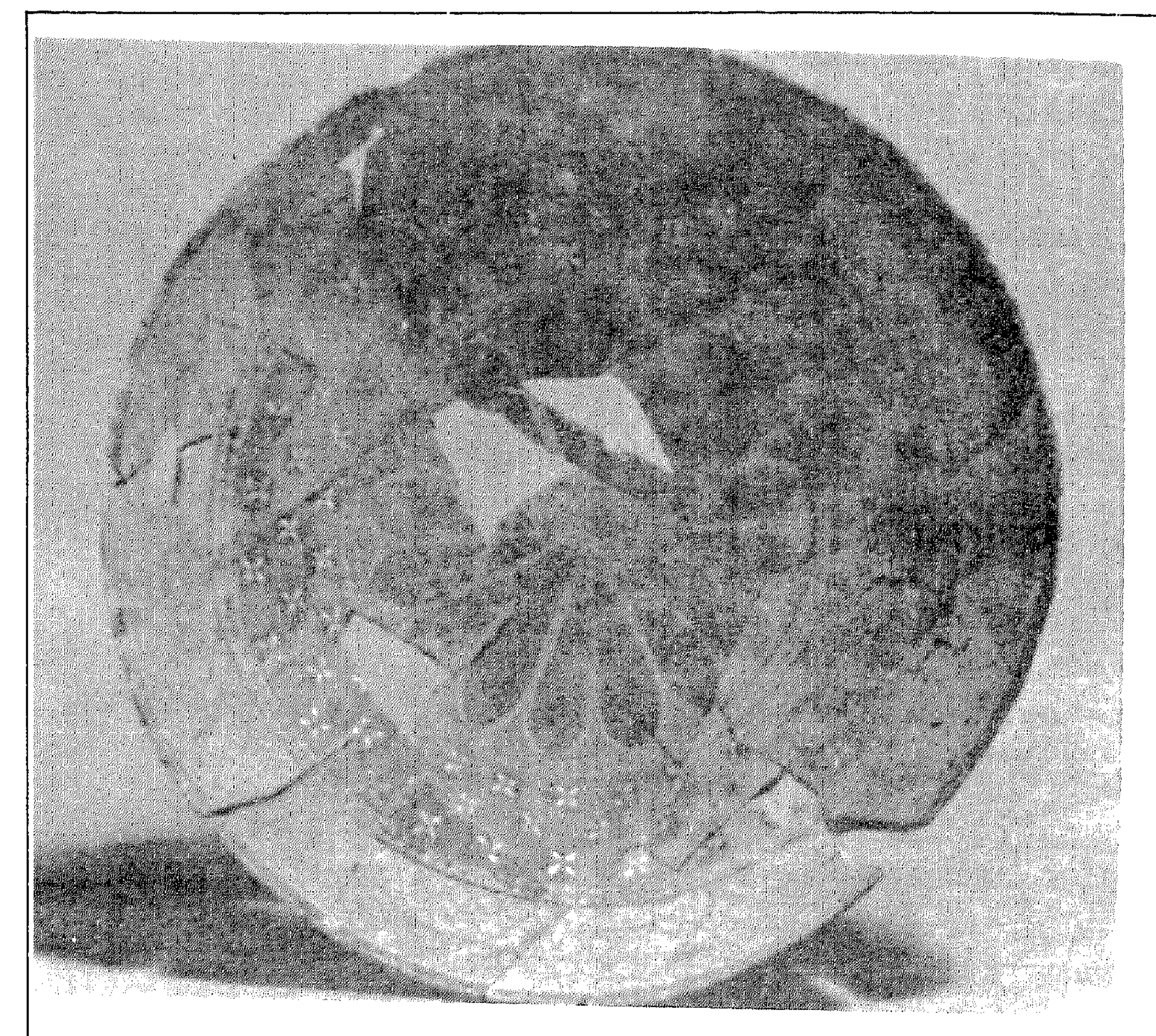
عزفين مجنح من العاج وجد في مجدو (تل المتسلم)

السومرية القديمة، والتي سار على غرارها البابليون والاشوريون فيما بعد، كانت متسعة نسبيا وكانت تحيط بها اسوار. فارك كانت مساحتها تزيد قليلا عن خمسة كيلو مترات مربعة. وقد اتضح من الوثائق المحلية ان مدينة لاغاش كان فيها ستة وثلاثون الف ذكر بالغ. ومعنى هذا ان سكانها جميعا كانوا يتراوحون بين ثمانين ومئة الف شخص. اما اور واريدو ونيبور فقد قدر سكان كل منها بنحو نصف مليون نسمة.

ومع ان الحياة الزراعية كانت الاصل في قيام المجتمع في هذه المدن، فان عدد السكان الكبير وما عثر عليه في بقايا هذه المدن يدل دلالة واضحة على اعتماد القوم على الصناعة والتجارة. وهنا يأتي دور التخصص المهني، واتقان المصنوع. وفي مقدمة الصناعات السومرية الصناعات المعدنية الصغرى، اي ما يمكن ان يصلح للزخرف والحلي. وبما ان ارض الرافدين خلو من المعادن، فقد كان على تجار سومر ان يحصلوا على حاجتهم من هذه المواد الخام من الخارج. وقد ثبت من الوثائق التجارية التي عثر عليها ان التجار كانوا يستوردون الذهب من عيلام وآسية الصغرى ومنطقة انطاكية. والفضة والرصاص من جبال طوروس ومن عيلام. والنحاس كانوا يحملونه من عمان، ولعله كان يحمل اليهم من القفقاس ايضا. وكان الحجر الجيد ينقل من عمان ليستعمل في براويز الابواب ولنحت التماثيل. وكانت ايران وافغانستان البلدان اللذان يزودان مدن سومر وصناعتها باللازورد، وذلك لصناعة الحلي. وكل اللؤلؤ الذي احتاجه الصياغ السومريون استورده لهم التجار من الخليج العربي، كما استورد هؤلاء التجار الاصداف البحرية الجيدة من الهند. ومع ان جبال زغروس وجبال امانوس كانت تبعث الى مدن سومر بأخشاب الارز والشربين، فقد كان لأرز



آنية من الذهب من راس شمرا.



آنية فخارية وجدت في تل حلف

لبنان مكانة خاصة بين العاملين في صناعة الاثاث والنجارة على العموم. وقد كان بعض هذه التجارة الخارجية يتم على ايدي تجار سومريين كانوا يقيمون لهم جوالي اوطوارىء في البلاد التي يتاجرون معها. ومن المؤكد، مثلا، انه كان ثمة جالية سومرية تجارية في كانش بآسية الصغرى.

وعرفت المدن السومرية دولاب الخزاف، بل هو مما نفحته للمدنية. وكان الخزف السومري، العادي والقيشاني، مطلوبا بكثرة. كما ان اقدم زجاج عرف في العالم كان من صنع السومريين. والذين عرفوا الدولاب لصنع الخزف، استعملوه ايضا في جر العربات. وقد تم لهم هذا قبل سنة ٣٠٠٠ ق. م. فكان عندهم عربات بأربعة دواليب وعربات بدولابين.

وتتميز الهياكل السومرية باتساعها وبأبراجها الحلزونية المصعد لكن الصعود كان من الخارج فقد كان اتساع هيكل «ايانا» في ارك خمسة وثمانين مترا طولا وثلاثين مترا عرضا. وكانت تقوم خلفه الزيغورات الحلزونية التي ترتفع نحو خمسة عشر مترا لتحمل هيكلا آخر صغيرا بالنسبة الى الهيكل الاصلي.

وقد يطول بناالحديث لو نحن سرنا في تعداد صفات المدنية السومرية ومآتيها. ولذلك نكتفي بهذا مذكرين انفسنا بأن السومريين هم الذين وضعوا الكتابة المسمارية، وهي الكتابة التي انتشرت في المنطقة وظلت مستعملة الى حول القرن الخامس ق. م. واقدم الوثائق التي عثر

عليها من ايام السومريين كانت وثائق تتعلق بالحياة اليومية والتجارة. وثمة وثائق ترجع الى سنة ٣٥٠٠ ق. م. هي ايصالات وفواتير تتعلق بالماشية والحليب والحبوب.

وبالرغم مما نعرفه عن المدنية السومرية بفضل العمل الاثري العلمي المنظم، فان اصل الشعب السومري اي موطنه الاصلي لم يكشف سره بعد.

والسؤال الذي يخطر في البال الآن هو: كيف ولماذا قامت هذه المدنية الاولى في عالم البشرية في تلك الرقعة من الارض؟

ليست الاجابة عن هذا السؤال يسيرة. وقد اختلف الباحثون في ذلك. ولكن يبدو، من المتمعن في النظريات التي تقدم بها الباحثون في تاريخ ارض الرافدين القديم، هو ان الاحوال الجغرافية كانت ملائمة لتطور وانتقال من القرى الزراعية المنفردة المتباعدة الى تجمعات مدنية اي الى حياة معقدة تحتاج الى تنظيم. وهنا لا بد من القول، مع المتخصصين في الشؤون السومرية، بأن عبقرية الشعب نفسه كان لها اثر في هذه النقلة.

●

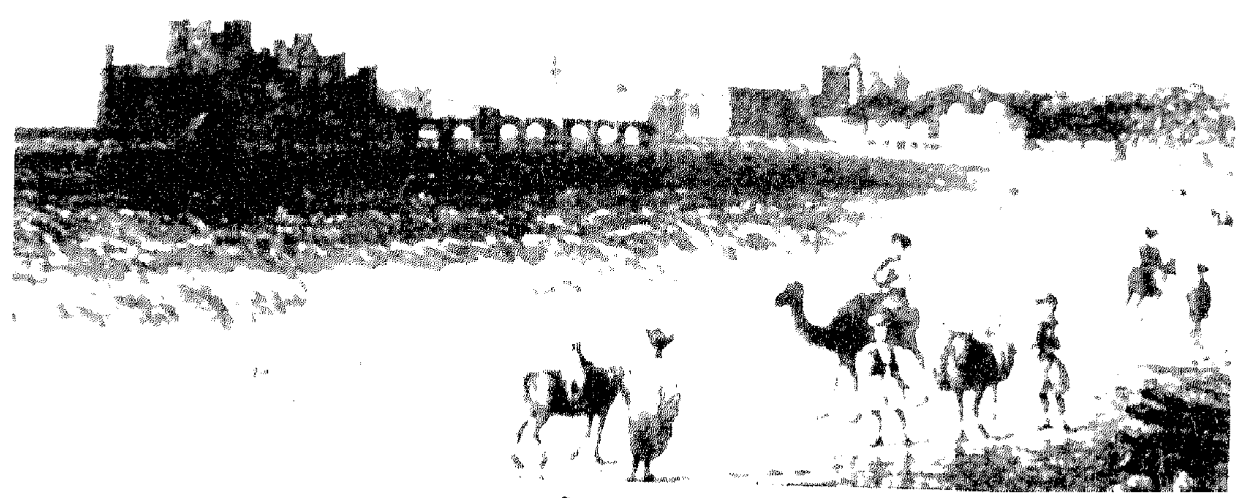


انية ذهبية تعود الى زمن مملكة اور



ختم اسطواني من خفجة يعود الى حقبة جمدت نصر

الصور من The Act Of Ancient Near East Seton LLoyd



أسرة عيسى بن الشيخ في صيدا وجنوب لبنان

في القرنين الثالث والرابع الهجريين

د. عمر عبد السلام تدمري

في عدد سابق من المجلة تناولنا بالبحث تاريخ « أسرة بني ابي عقيل في صور » وفي هذا البحث نتناول اسرة ثانية من الأسرات الحاكمة في تاريخ لبنان وهي « أسرة عيسى بن الشيخ » في صيدا وجنوب لبنان خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين . ومن خلالها نتعرف على صفحة من تاريخ لبنان في العصر الوسيط .

ونطالع أخبار هذه الأسرة من خلال شيخها ومؤسس إمارتها « عيسى بن الشيخ » الذي يمر ذكره في المصادر التاريخية ، عند « اليعقوبي » و « المسعودي » و « ابن عساكر » و « ابن الأثير » ، فهو : **عيسى ابن الشيخ عبد الرزاق بن السليل الشيباني من ولد جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة الشيباني الربعي الذهلي** . وقد ورد ذكره لأول مرة وهو في « مرند » بأذربيجان ، في عهد المتوكل العباسي سنة ٢٢٤ هـ(١) . ثم نجده في عهد المستعين بالله ، وهو في فلسطين ، حيث يذكره « الطبري » في حوادث سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م . فيقول : إن حرباً دارت بين عيسى بن الشيخ ، والموفق الخارجي ، تم فيها اسر « الخارجي » ، وان « ابن الشيخ » طلب من الخليفة المستعين توجيه ما يحتاج اليه من السلاح ليكون عدة له في بلده حتى يقوي به جنوده على الغزو . كما طلب منه ان يكتب الى صاحب مدينة « الصور » في توجيه اربع مراكب

اليه بجميع آلتها لتكون قبله اضافة لما عنده منها[٢] .

والملاحظ في رواية الطبري انها تذكر اسم صور ، باضافة الألف واللام في أوله « الصور » وهذا الرسم لاسم مدينة صور ورد عند « ياقوت الحموي » في معجمه وهو يذكر احد الصيداويين فقال : « الصيداء بساحل الشام تعرف بصيداء الصور » .[٣] وهذا الرسم ورد أيضاً عند ابي نعيم الأصبهاني في « ذكر أخبار أصبهان » وهو يذكر احد الأصبهانيين فقال : « رابط الصور بالساحل من الشام »[٤] .

ومن رواية الطبري ايضا يتضح لنا ان صور كانت تحتفظ باسطول بحري في ذلك الوقت ، ولم يكن ذلك الا ثمرة لجهود المتوكل العباسي الذي أمر في آخر سني خلافته (٢٤٧ هـ - ٨٦١ م) ببناء ما تهدم وتحصين ما تشعث من الحصون ، وترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة .[٥] وكان هشام بن عبد الملك قد صرف عنايته الى تدعيم السواحل ، وفي عهده (١٠٥ - ١٢٥هـ . / ٧٢٤ - ٧٤٣ م .) انتقلت صناعة السفن من عكا الى صور ، وحول ذلك يروي « البلاذري » ان رجلا من عكا كان يملك ارحاء (جمع رحى) ومستغلات ، فأراد هشام ان يشتريها منه فأبى الرجل ، وعند ذلك نقل هشام الصناعة الى صور واتخذ بها فندقا ومستغلا[٦] . وظلت صناعة المراكب في ميناء صور من ذلك الوقت حتى ما بعد عهد المتوكل العباسي .

أما الحرب التي دارت بين عيسى بن الشيخ والموفق الخارجي ، فلم يفصح الطبري وابن الأثير عن ميدانها . الا انه يمكننا القول انها كانت في فلسطين ، اذ نرى ابن الشيخ يمتنع عن مبايعة المعتز العباسي في اوائل سنة ٢٥٢هـ . فيسير اليه عامل دمشق « نوشري التركي » لقتاله فيفر الى مصر ، ويدخل نوشري الرملة[٧] .

ويعود عيسى بن الشيخ بعد قليل من مصر فيدخل سامراء فيصفح المعتز عنه ، ويوليه على الرملة من جديد في اول ذي الحجة من السنة ٢٥٢هـ[٨] . ولكنه كان يملك نفسا طموحة ، فما لبث ان استولى على فلسطين كلها ، والأردن ، كما تغلب على دمشق واعمالها ، وقطع ما كان يحمل من الشام الى الخليفة من اموال[٩] مغتنما اضطراب الأحوال على الخليفة في سامراء[١٠] ونفهم ضمنا ان لبنان او قسما منه ، وخاصة الجزء الجنوبي قد دخل في جملة ما استولى عليه ابن الشيخ ، اذ كانت صور وما يليها شرقا وجنوبا يدخل ضمن جند الأردن[١١] .

ولم تقف طموحات ابن الشيخ عند ذلك الحد ، بل كان يتطلع الى حكم مصر حيث دخلها يريد الاستقلال بها ، واستولى على مبلغ (٧٥٠ الف) دينار كان مرسلا من مصر الى الخليفة[١٢] ، فبعث اليه « المهتدي » كتابا بالأمان في سنة ٢٥٥هـ . فامتنع عن الاستجابة ، ولم يجد المهتدي بدا من تطويق حركته قبل استفحال امره ، فأوكل امر هذه المهمة الى القائد التركي « احمد بن طولون » (مؤسس الدولة الطولونية) ، وحين دخل مصر فر عيسى الى فلسطين تاركا ابنه محمدا على الشرط في مصر ، فقام ابن طولون بقتله[١٣] . واستمر ابن الشيخ متغلبا على فلسطين والأردن ، حتى جاء « أماجور التركي » وولي دمشق للمعتمد على الله في سنة ٢٥٦هـ . فجمع له عيسى بن الشيخ نحو عشرين الف رجل وأعطى القيادة عليهم لابنه « منصور » ومعه « ظفر بن اليمان » المعروف بأبي الصهباء . وكان عيسى قد رفض مبايعة المعتمد في الخلافة ، وترك لبس السواد - وهو شعار العباسيين - تهويلا[١٤] .

وهنا نجد المؤرخ اللبناني « طنوس الشدياق » المتوفي سنة ١٨٥٩ يعطينا بعض المعلومات الهامة من تاريخ لبنان استقاها من مصادر قديمة لم يفصح عنها في كتابه تتعلق بالصراع الذي دار بين ابن الشيخ والخلافة العباسية ، فيقول ان ابن شيخ كان قد كتب الى الأمير ابراهيم بن اسحاق بن أرسلان والي إمارة الغرب يستدعيه اليه برجاله ، فسار الى حوران سنة ٢٥٦ أو ٢٥٧هـ .

وعندما قدم «أماجور التركي » لقتال ابن شيخ كان معه الامير النعمان بن عامر بن مسعود الأرسلاني . وبعد مقتل اصحاب ابن شيخ - بمن فيهم ابنه منصور على باب دمشق - كافأ أماجور النعمان بتوليته على بيروت وصيدا وجبلهما ، ولقب بأمير الدولة وكتب به الى الخليفة ، والى صالح بن وصيف (؟) فصدرت التواقيع بتقريره على



مئذنة الجامع العمري بصيدا.

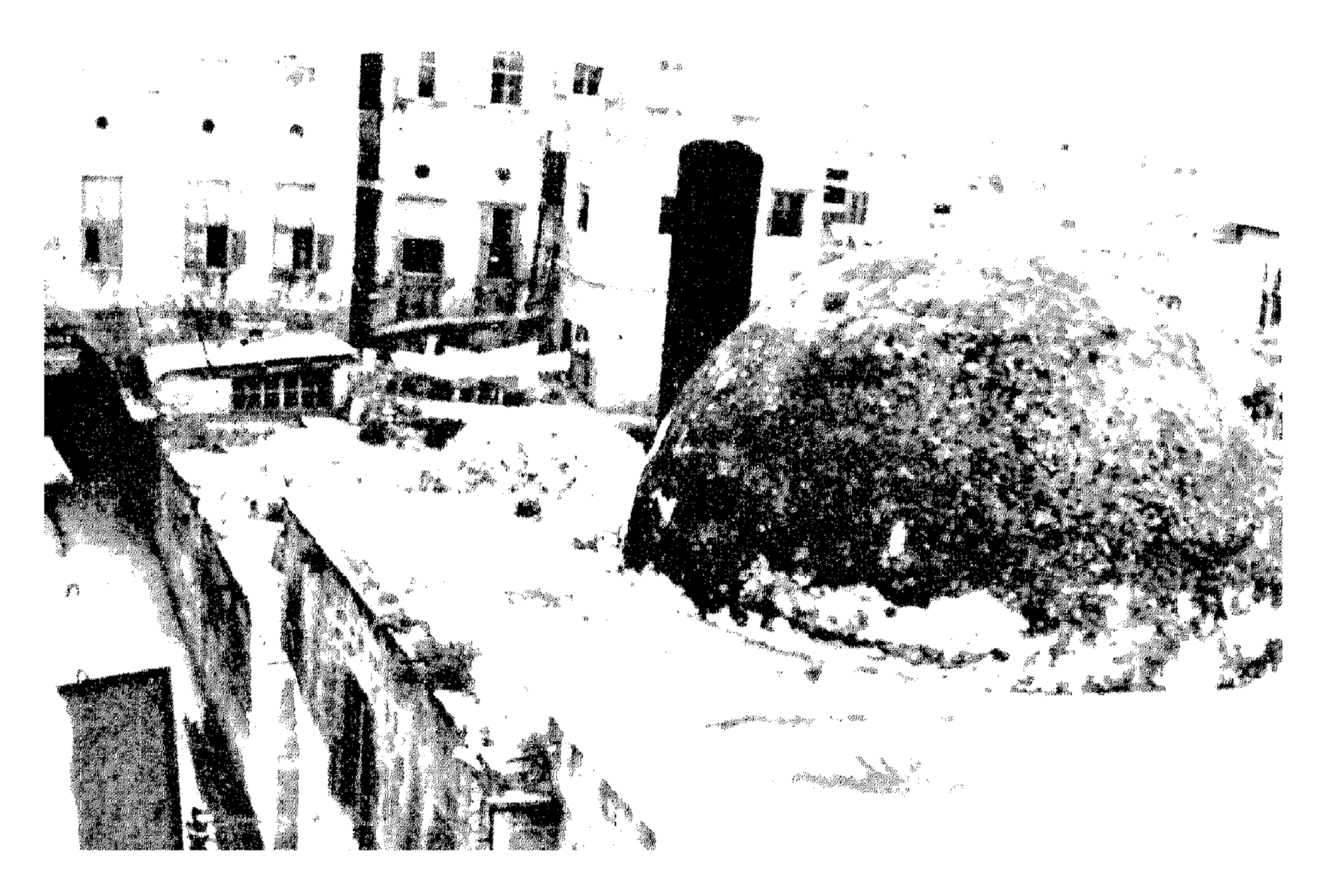
الولايات المذكورة ، وأمره بالاقامة في بيروت لأجل محافظتها من الروم ، ودخل الجبل(١٥) .

والملحوظة التي أسوقها هنا على رواية الشدياق هي أن صالح بن وصيف الوزير قتل في ٢٢ صفر سنة ٢٥٦هـ . فاذا ثبت انه كتب للنعمان للامارة على الغرب ، في لبنان ، فان الموقعة بين أماجور التركي ومنصور بن عيسى تكون في اول سنة ٢٥٦ او آخر سنة ٢٥٥هـ . أو ٢٥٧ هـ وبذلك لا يستقيم قول الشدياق ان ابراهيم بن ارسلان سار الى حوران سنة ٢٥٦ او ٢٥٧هـ .

وينفرد الشدياق ، من جهة اخرى ، بالقول ان الأمير ابراهيم اختفى بعد الموقعة قم استأمن الى أماجور فأمنه ، فأقام في بيته حتى مات في سنة ٨٧٠ م . (٥٦ - ٢٥٧هـ)(١٦) .

وتضيف المصادر التاريخية ان عيسى بن الشيخ لجأ بأهل بيته الى مدينة صور وتحصن بها بعد مقتل ابنه وهزيمة اصحابه(١٧) . فبعث له المعتمد الفقيهين : « اسماعيل بن عبد الله المروزي » المعروف بأبي النصر و « محمد بن عبيد الله الكريزي القاضي » ورسوله « الحسين الخادم » « المعروف بعرق الموت »(١٨) بولايته ارمينية ، على ان ينصرف من بلاد الشام آمنا ، فقبل ذلك ، وخرج من صور بطريق الساحل الى ولايته في السنة ٢٥٦هـ .(١٩) ويذكر « ابن شداد الحلبي » نقلا عن « بغية الطلب في تاريخ حلب » المخطوط لابن العديم الحلبي أن عيسى بن الشيخ رتب ولديه محمداً بن عيسى بآمد ، وأحمد بن عيسى بميافارقين(٢٠) وفي هذه الرواية وهم لأن محمدا ابن عيسى قتل في مصر قبل هذا التاريخ كما مر ، ولعل الذي ولي آمد ابنا اخر لعيسى بن الشيخ ، فقد ظهر لنا من سلسلة نسب ابن الشيخ انه كان له خمسة اولاد ذكور ، وصلتنا اسماؤهم من مصادر مختلفة . (انظر سلسلة نسب ابن الشيخ) .

وظل عيسى بن الشيخ على ولاية ارمينية حتى مات هناك في سنة ٢٦٩هـ(٢١) . فخلفه ابنه احمد الذي بنى منارة الجامع بميافارقين في سنة ٢٧٣هـ(٢٢) . وتوفي سنة ٢٨٥هـ(٢٣) . ثم حفيده محمد بن احمد بن عيسى المكنى بأبي موسى الذي حاصره المعتضد في آمد سنة ٢٨٦



قباب بحمّام فخر الدين.

وكان حدثاً ، فصفح عنه بشفاعة خالته المعروفة بأم الشريف[٢٤] .

وهنا نقرأ في « الأعلاق الخطيرة » : « ان موسى عيسى بن الشيخ لما استبد بملك آمد قصده المعتضد في سنة ٢٨٥ فحاصره فيها الى ان اخذها عنوة »[٢٥] .

ثم نقرأ في حاشية الكتاب المذكور تعليقا لمحققه الاستاذ يحيى عباره اراد فيه توضيح نص المتن المذكور فوقع في اخطاء فاحشة ، وقبل ان نفند الأخطاء ، يجدر ان نذكر نص تعليقه ، حيث يقول :

« ان في نص المتن خطأ يجب تجليته وكشفه :

١ - أنجب خلف محمد بن السليل الشيباني النوشري ولدين اتفقا اسما واختلفا كنية ، فأولهما هو : ابو منصور عيسى ابن الشيخ النوشري ، وهو الذي تولى امرة دمشق من سنة ٢٤٧ حتى ٢٥٦هـ . وتوفي بمصر سنة ٢٦٩هـ .

وثانيهما هو : ابو موسى عيسى ابن الشيخ ، وقد ولي فارس من سنة ٢٨٧ حتى ٢٨٨هـ .

وولي مصر من سنة ٢٩٢ حتى ٢٩٧هـ .

وتوفي في ٢٥ شعبان سنة ٢٩٧هـ .

وأخذا بما جاء في شجرة نسب بني النوشري نجد ان ابا منصور عيسى قد انجب احمدا ثم أنجب احمد محمداً .

وأمسك « زامباور » عن رسم سلالة ابي موسى عيسى .

٢ - جاء في « الكامل » (لابن الأثير) في حوادث سنة ٢٨٥هـ . « توفي احمد بن عيسى ابن الشيخ وقام بعده ابنه محمد بآمد وما يليها ..

٣ - جاء في معجم زامباور ١٨/١ الحاشية ٤ ان الواقعة كانت في سنة ٢٨٢هـ . بين المعتضد وبين محمد بن أحمد بن عيسى بن الشيخ .

* * *

ثم يخلص المحقق الأستاذ عبارة لتقرير « الحقائق » التالية :

١ - الأخذ بأن محمد بن السليل الشيباني كان له ولدان باسم عيسى :

اولهما : ابو منصور عيسى بن محمد بن السليل الشيباني .

وثانيهما : ابو موسى عيسى بن محمد بن

السليل الشيباني .
٢ - لم تكن الملاقاة ما بين الخليفة المعتضد مع ابي منصور عيسى بن الشيخ ولا مع اخيه ابي موسى عيسى بن الشيخ .
٣ - كانت ملاقاة الخليفة المعتضد مع محمد بن ابي منصور عيسى بن الشيخ .
٤ - تحرك الخليفة المعتضد لملاقاة محمد في اواخر سنة ٢٨٥هـ . واستسلم محمد له في آمد في ربيع الآخر سنة ٢٨٦ وأمنه الخليفة وخلع عليه وأمن من معه .
٥ - والمعروف ان محمد بن منصور عيسى بن الشيخ صاحب آمد وماردين سنة ٢٧٩ ومراغة سنة ٢٨٠هـ .
٦ - تحديد الواقعة بين الخليفة المعتضد وبين محمد بن ابي المنصور عيسى بن الشيخ كما جاءت في معجم زامباور ١/١٨ الحاشية ٤ في سنة ٢٨٢هـ . هو خطأ ، وربما كان من الطباعة ، والصواب في ذلك سنة ٢٨٦هـ . كما وردت في الكامل لابن الأثير .

* * *

ونحن نقول تصويبا لكل ذلك :
١) ان المقصود بالشيخ هو عبد الرازق ابن السليل الشيباني الربعي كما جاء عند اليعقوبي والمسعودي وابن عساكر وابن الأثير . وهم لم يذكروا ان عيسى هو ابن محمد .
٢) ليس في المصادر ما يفيد ان عيسى الشيباني هو عيسى النوشري . فالشيباني من ولد جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة كما عند ابن عساكر وابن الأثير ، وهو عربي الأصول .
اما النوشري فنسبته تركية وليست عربية ، مما يقطع بأن عيسى الشيباني هو غير عيسى النوشري وليسا اخوين ايضا . ولا يعقل بداهة ان يسمى اخوان اسما واحدا . ويبدو جليا ان الخطأ وقع في الأساس عند المستشرق « زامباور » في معجم الأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، فهو الذي يخلط بين الشيباني والنوشري فيجعلهما شخصا واحدا[٢٦] ، ثم تلقف الاستاذ عبارة هذا الخطأ واستمر به كما هو واضح . ويمكن مراجعة « أمراء دمشق في الاسلام » للصفدي في هذا الموضوع[٢٧] .
٣) ليس هناك اثنان باسم عيسى بن السليل الشيباني .
٤) اما النص عند « ابن شداد » فيبدو انه سقط منه اسم « محمد » بين (ابو موسى) و (عيسى) ، ولعل الخطأ من المؤلف او الناسخ ، ويمكن تصويب العبارة بما يلي : « .. ويحكى ان أبا موسى (محمد بن احمد بن) عيسى بن الشيخ ، لما استبد بملك آمد قصده المعتضد .. » وبهذا تستقيم العبارة وتنسجم مع تاريخ الواقعة اواخر سنة ٢٨٥ واوائل سنة ٢٨٦هـ .

* * *

ثم نطالع اسم احد احفاد عيسى هو : احمد بن العباس بن عيسى بن الشيخ ، وكان موجودا في ايام وزارة ابن الفرات الثالثة (٣١١ - ٣١٢هـ) ذكره هلال الصابي وقال انه « كان رجلا كبيرا ومغفلا » وروى عنه حكاية تدل على غفلته[٢٨] . وذكر الامير ابن ماكولا اسم اثنين من أحفاد عيسى بن الشيخ قال انهما كانا من المحدثين ، احدهما يدعى « السليل بن احمد بن عيسى » وهو يروي عن المؤرخ ابن جرير الطبري المتوفي ٣١٠هـ . والاخر يدعى « محمد بن اسحاق بن عيسى » وكان صديقا للحافظ الدارقطني المتوفي سنة ٣٨٥هـ[٢٩] .
وتنقطع اخبار اسرة عيسى بن الشيخ حتى قبيل منتصف القرن الرابع الهجري حيث نجد ان أبناء الشيخ يعودون للظهور في صيدا ويتولون قضاءها وولايتها ، ولعل « ابن عيسى » الذي ذكره ابن عساكر وقال انه تولى قضاء صيدا في سنة ٣٤٩هـ[٣٠] . هو احد أحفاد عيسى بن الشيخ الشيباني . ولكننا لا نعرف اذا كان قدم من ارمينية حيث كان أجداده يقيمون ، أم كان من أحفاد عيسى الذين ظلوا يقيمون في جنوب لبنان او في الشام ، ونحن نعرف ان « ابن عيسى » انتقل من دمشق الى صيدا وتولى قضاءها حسب رواية ابن عساكر .
وفي سنة ٣٥٩هـ . نجد احد أبناء الشيخ أميرا على صيدا ويبدو انه كان مستقلا في حكمها حيث دعاه ابن عساكر بـ « ابن الشيخ صاحب صيدا » . ومن المرجح انه تغلب على حكمها في فترة الاضطراب والضعف اللذين اخذت الدولة الاخشيدية تعانيهما قبل سقوطها امام الفاطميين ، وبعد ان فقد الاخشيديون كثيرا من المدن والمواقع اثر الحملة التي قام بها الامبراطور البيزنطي « نقفور فوكاس » على بلاد


آثار صليبية
في قلعة البحر.

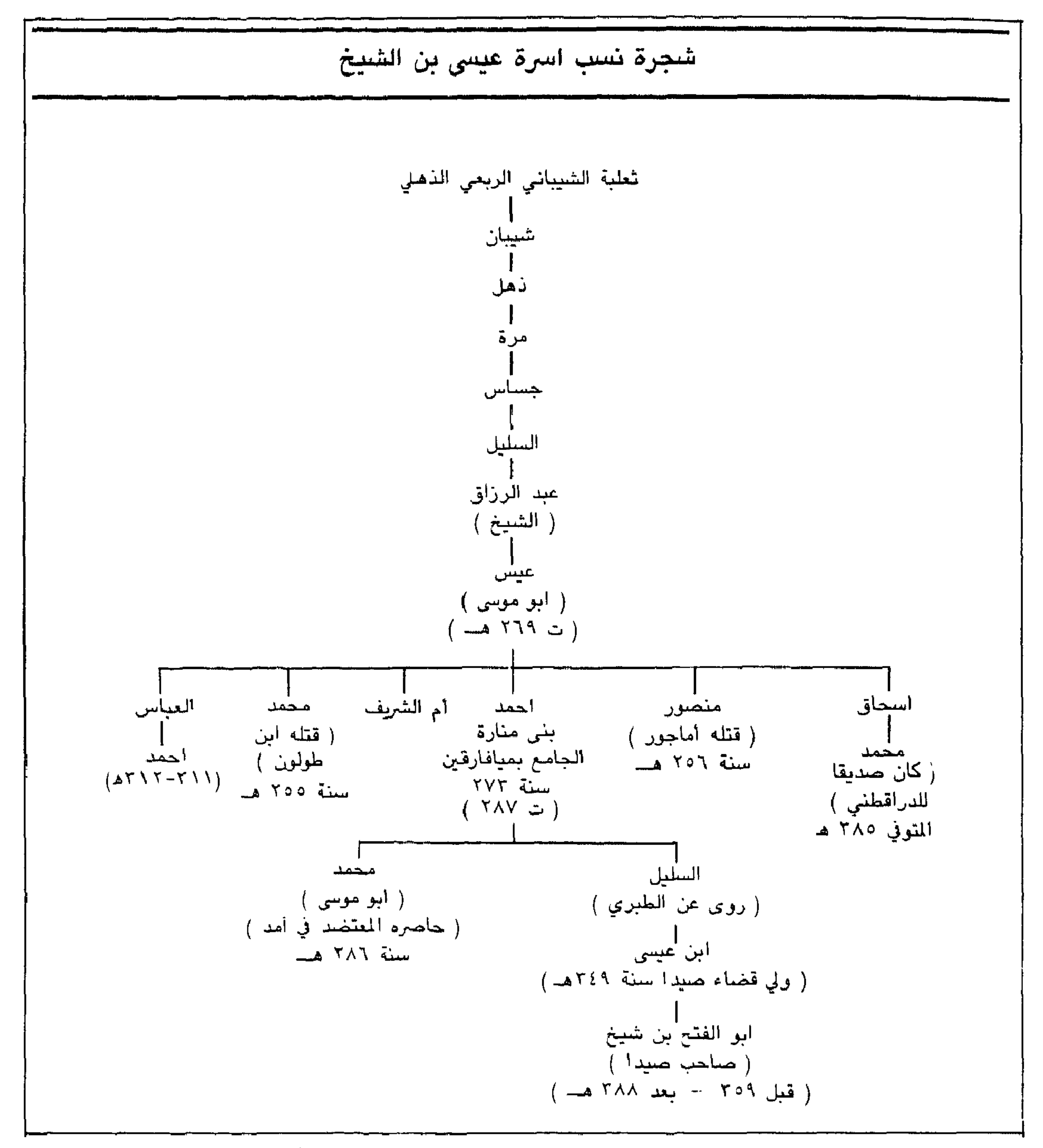
الشام في سنتي ٣٥٧ و٣٥٨هـ . / ٩٦٨ م . ووصل بها الى طرابلس الشام(٣١) .

وكان « ابن الشيخ صاحب صيدا » من الأمراء ذوي الكلمة المسموعة لدى سلطان مصر وولاته عل دمشق ، ويدلنا على ذلك ما قيل عن « فاتك ابـي شجـاع » المعـروف بالخـازن الأخشيـدي الـذي ولي امـرة دمشـق بين سنتي ٣٤٥ و ٣٥٩ هـ من ان سلطان مصر الاخشيدي « أبـا الفـوارس احمـد » حفيد الاخشيد محمد بن طغج قام بعزل « فاتك عن امرة دمشق ، وعندما حمله اميرها الجديـد « نقبك » (وقيل فنك) الكافوري الى صيدا لينقل من هناك الى مصر لسجنه او قتله ، تدخل ابن الشيخ صاحب صيدا بما له من نفوذ وسأل في اطلاق سراحه فأطلق واعيد الى دمشق حيث اقام فيها حتى توفي في سنـة ٣٦٠هـ . / ٩٧١ م . أظهر « ابن الشيخ » ولاءه للخليفة المعز لدين الله الفاطمي الذي ابقاه اميرا من قبله على صيدا ، كما جرى تثبيت « المنذر بن النعمان بن عامر » على امارة بيروت والغرب ، وعين « ريان الخادم » واليا على طرابلس .

وفي سنـة ٣٦٤هـ . / ٩٧٦ م . نجـد « ابن الشيـخ » وهو يكنى « ابا الفتح » في صيدا عند وصول حملة الامبراطور البيزنطي « حنا تزيمسكس » الى أسوارها ، ويبدو ان ابا الفتح بن شيخ كان يتولى صيدا بنوع من الحكم الذاتي او مستقلا عن الدولة الفاطمية ، ذلك ان الفاطميين هبوا لنجدة كل من بيروت وطرابلس ، ولم ينجدوا صيدا ، ولذلك خرج ابو الفتح بن شيخ ومعه شيوخ صيدا مستسلمين للامبراطور تزيمسكس عندما نزل عليها ، وقرروا معـه امرهم على مال اعطوه اياه ، وهدية حملوها اليه(٣٣) .

وابو الفتح بن شيخ هذا هو الذي حبس « طلحة بن ابي السكن » خادم احمد بن عبد الرحمـن بـن يحيى بـن جميـع الغسانـي الصيداوي في قلعة صيدا فأطلقه « ابو بكر احمد بن محمد الصيداوي » المتـوفي سنـة ٣٧١هـ (٣٤) .

وفي الوقـت الـذي قام به الامبراطـور تزيمسكس بحملته على ساحل الشام كان بدمشق القائد التركي « ابو منصور هفتكين المعزي » الذي طمع في الاستيلاء على ثغور الساحل ، فسار فيمن اجتمع اليه ونزل على صيدا في سنة ٣٦٥هـ . / ٩٧٥ م . وبها « ابن الشيـخ » واليا ، ومعه رؤوس من المغاربة الفاطميين ، ومعهم ايضا « ظالم بن موهوب العقيلي » ، فقاتلوا هفتكين – وكانوا في كثرة – وطمعوا فيه وهو نازل على نهر هناك (لعله نهر الأولي) فخرجوا وراءه ، وانضم اليهم خلق كثير من اهل صيدا ، فسار بعسكره الى بانياس وهناك دارت موقعة رهيبة داس فيها الأتراك بالخيل



على المغاربة فهزموهم واخذوهم بالسيف ، وأحصي القتلى فبلغوا اربعة الاف ، وانهزم ظالم بن موهوب الى صور .[٣٥] ويذكر « ابن كثير » ان هفتكين حاصر صيدا حتى اخذها[٣٦] . وطمع في الاستيلاء على عكا وتوجه نحوها .

وجاء انسياح البيزنطيين في انحاء بلاد الشام واستفحال خطرهم ، الى جانب الفتن التي اثارها هفتكين والقرامطة وغيرهم من القبائل العربية ، وتهديدهم مدن الساحل صيدا وصور ، لتحمل تحذيرا للخليفة الفاطمي الجديد « العزيز بالله » (٣٦٥ - ٣٨٦هـ . / ٩٧٥ - ٩٩٦ م .) فخرج في اخر سنة ٣٦٧هـ . من القاهرة بجيش عظيم . وفي الرملة بفلسطين ، كانت الوقعة الحاسمة التي انتصر فيها الفاطميون انتصارا ساحقا .[٣٧] وقد شارك في هذه الموقعة « ابن شيخ صاحب صيدا » الى جانب العزيز بالله ، فأعاده الى صيدا من جديد .

وقد ظل بنو الشيخ ولاة على صيدا حتى العشر الأخير من القرن الرابع الهجري حيث نجد « ابن شيخ » يشارك في الحملة البرية -

البحرية التي قام بها الفاطميون الى ثغر صور والقضاء على ثورة احد رجال البحرية المعروف بـ « العلاقة » في سنة ٣٨٨هـ . / ٩٩٨ م .(٣٨) وكان للفاطميين في ميناء صيدا بعض القطع البحرية كما هو الحال في ميناء طرابلس . وكان « ابن شيخ » يتولى قيادة الأسطول الصيداوي مثل القاضي « علي بن حيدرة » الذي كان يقود اسطول طرابلس ويتولى امرة المدينة .

وينقطع ذكر بني الشيخ في صيدا منذ اواخر القرن الرابع الهجري / اول القـرن الحادي عشر الميلادي فلا نقرأ عنهم شيئا بعد ذلك ، ويبدو ان آل مرداس اصحاب حلب هم الذين تسببوا في القضاء على هذه الأسرة اذ دخلت صيدا في حوزة صالح بن مرداس الكلابي مع بعلبك وحصن عكار وغيره من البلاد في سنة ٤١٥هـ . / ١٠٢٤ م(٣٩) .

●

المصادر والحواشي :

(١) الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ٤٢/٧ ، تاريخ دمشق (المخطوط) - ابن عساكر - ٢٥/٣٤
(٢) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ٣٠٨/٩ ، ابن الاثير ١٦٣/٧
(٣) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ٤٣٨/٣
(٤) ذكر اخبار اصبهان - ابو نعيم الاصبهاني ٣٣١/١ - ليدن ١٩٣١
(٥) فتوح البلدان ، البلاذري ، ١٤٠/١٥ و١٩٣
(٦) البلاذري ١٤٠/١
(٧) تاريخ اليعقوبي ٥٠٠/٢
(٨) الطبري ٣٧٢/٩ ، مروج الذهب المسعودي ١٧٧/٤ ، المختصر في اخبار البشر ابو الفداء ٤٤/٢
(٩) سيرة ابن طولون ، ٥ ، ابن الاثير ١٧٦/٧ ، الاعلاق الخطيرة - ج ٣ ق ٢٩٢/١ ، خطط الشام ١٦٧/١
(١٠) ابن عساكر٢٦/٣٤، ابو الفداء ٤٤/٢
(١١) البلاذري ١٣٩/١
(١٢) ابن عساكر ٣٦/٣٤
(١٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة - الكندي ٢١٥ ، ولاة مصر ، الكندي ٢٤٢ ،ابن عساكر ٢٧/٣٤
(١٤) ابن عساكر ٢٧/٣٤
(١٥) اخبار الاعيان في جبل لبنان ، طنوس الشدياق ٤٩٨/٢
(١٦) الشدياق ٤٩٨/٢ و٤٩٩
(١٧) تاريخ اليعقوبي ٥٠٥/٢ - ٥٠٧ ، الطبري ٤٧٤/٩ و٤٧٥ ، ابن الاثير ٢٣٨/٧
(١٨) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب - الثعالبي ٦٨٢ ، الانساب - السمعاني ٤٣٢/٨ و٤٣٣
(١٩) الطبري ٤٧٥/٩ ، ابن الاثير ٢٣٨/٧ وعند اليعقوبي سنة ٢٥٧ (٥٠٨/٢)
(٢٠) الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ق ٢٩٣/١
(٢١) الطبري ٦٢٧/٩ ، ابن عساكر ٢٧/٣٤ ، ابن الاثير ٣٩٧/٧
(٢٢) الاعلاق الخطيرة ج ٣ ق ٢٧٩/١
(٢٣) مروج الذهب ٢٣٠/٤ و٢٤٠ ، ابن الاثير ٤٩١/٧
(٢٤) مروج الذهب ٢٤٠/٤ - ٢٤٣
(٢٥) الاعلاق الخطيرة - ج ٣ ق ٢٥٥/١
(٢٦) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي - زامباور ١٨/١ - القاهرة ١٩٥١
(٢٧) امراء دمشق في الاسلام - الصفدي - تحقيق د . المنجد ٦١/ ٦٢ - دمشق ١٩٥٥
(٢٨) الوزراء - هلال الصابي ١٦٥ - القاهرة ١٩٥٨
(٢٩) الاكمال - ابن ماكولا ٣٣٨/٤ و٩٦/٥
(٣٠) ابن عساكر ١٧٥/٣٧
(٣١) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري - د . عمر تدمري ١٨٠/١ ومابعدها
(٣٢) ابن عساكر ٤٧٥/٣٤ ، النجوم الزاهرة ٥٦/٤ وفيات الاعيان ، ابن خلكان ٤٦/١
(٣٣) ذيل تاريخ دمشق . ابن القلانسي ١٤
(٣٤) ابن عساكر ١٦٢/٣ ، تهذيب ابن عساكر ٤٤٢/١
(٣٥) ابن القلانسي ١٥ ، الدرة المضنية في اخبار الدولة الفاطمية ابن ايبك ١٧٦/٦
(٣٦) البداية والنهاية - ابن كثير ٢٨١/١١
(٣٧) اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا - المقريزي ١٢٤٤/١
(٣٨) تاريخ الانطاكي ١٨١/١ ، ابن القلانسي ٥٠
(٣٩) الانطاكي ٢٤٨/٢

مظاهر المقاومة وروادها في الشرق القسنطيني ضد الاستعمار الفرنسي





الامير عبد القادر الجزائري.



حي بوعزيز

يشمل الشرق القسنطيني الرقعة الجغرافية الواسعة التي كانت تمثل بايلكية الشرق، او بايليك قسنطينة، والتي تمتد من البحر شمالاً إلى ما وراء بسكرة وواد سوف حوض ريغ وايغرغر جنوباً، ومن الحدود التونسية شرقاً، إلى ما وراء اقليم ونوغة وبرج حمزة، واعماق جرجرة، غرباً. ويحتوي على جبال البيبان، وحوض الصومام، وجبال البابور، وقسنطينة وعنابة، وسوق اهراس، والسهول العليا القسنطينية، وكتلة جبال الاوراس، والنمامشة، وتبسة. وجبال الحضنة، وحوضها، وجبال الزاب والزيبان، واقليم سوف في حوض واد ريغ. وواحات الصحراء الشمالية الشرقية مثل تقرت وورقلة(*).

والشرق القسنطيني بصفة عامة جبلي في معظمه من حيث المظهر التضاريسي، تلتقي في وسطه سلسلتا: جبال الاطلس الشمالية التلية، وجبال الاطلس الجنوبية الصحراوية عند كتلة الاوراس، وليس فيه من الاحواض والسهول سوى حوض واد الصومام، والسهول العليا القسنطينية التي تمثل الجزء الشرقي من اقليم الهضاب العليا الجزائرية، إلى جانب منبسطات تبسة، وحوض واد سوف، وريغ، وسهول عنابة

(*) اعد هذا الموضوع والقي في ملتقى: قسنطينة عبر العصور التاريخية (بقسنطينة يوم ٣ مارس ١٩٧٩).

وسكيكدة. تناله نسبة لا بأس بها من الرطوبة في الشتاء لارتفاعه وقربه من جهة البحر الشمالية المتوسطية. ونسبة كثافة السكان فيه عالية عبر التاريخ إذا ما قورن بوسط البلاد وغربها، وذلك لظروف تاريخية.

والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشي اساساً، يضاف إليها النشاط التجاري، والصناعة التقليدية التي كانت تدر على اصحابها مردوداً لا بأس به في القرى العمرانية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة.

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة عام ١٨٣٠، واجه الفرنسيون صعوبات كبيرة في التوسع إلى الغرب الوهراني بسبب مقاومة الامير عبد القادر التي دامت خمسة عشر عاماً، وإلى الشرق القسنطيني بسبب عوامل رئيسية ثلاثة.

أولاً: الطبيعة الجغرافية التضاريسية الصعبة التي تتمثل في كثرة الجبال ووعورة اختراقها، والتنقل عبرها.

ثانياً: بروز الحاج احمد باي بمقاومته الصلبة والعنيدة التي دامت ثمانية عشر عاماً.

ثالثاً: صلابة المقاومة التي ابداها السكان، وصمودها، واستمرارها قرابة خمسين عاماً.

فقد اعتصم بمختلف مناطق الشرق القسنطيني، معظم المقاومين الجزائريين، البسطاء، والكبار. وتحولت جباله وواحاته إلى معقل للكفاح المسلح طوال نصف قرن من الزمن من عام ١٨٣٠ إلى ما وراء عام ١٨٨٠، وبرز في هذه الجهات ابطال وزعماء، بذلوا النفس والنفيس، في سبيل انجاح القضية الوطنية التحريرية، وقادوا جماهير السكان، إلى المعارك الكبرى، او الجهاد المقدس كما كانوا يعبرون عنه، ضد القوات الاستعمارية الغازية، ولم يبخلوا بتقديم اية تضحية مهما كانت غالية.

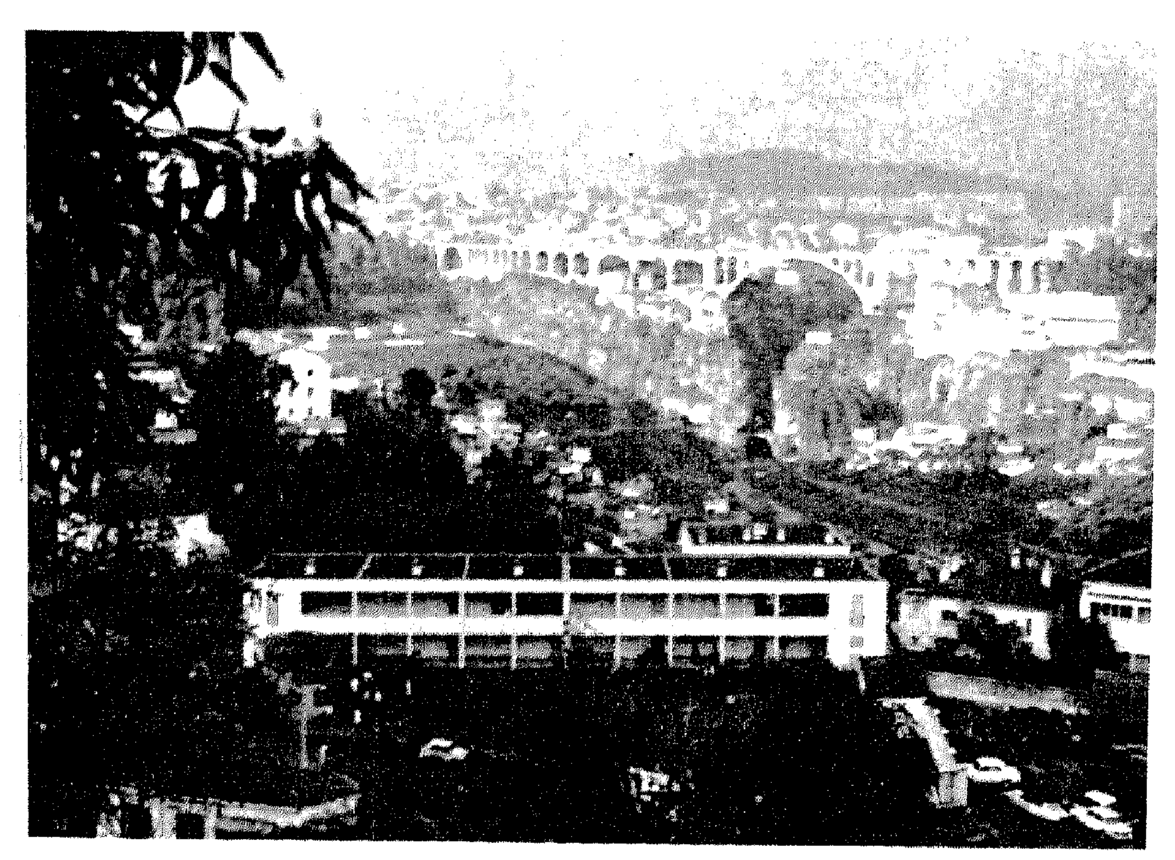
ولقد مرت المقاومة المسلحة في الشرق القسنطيني، بمرحلتين اثنتين رئيسيتين: الاولى تدخل في اطار مقاومة الحاج احمد باي والامير عبد القادر في الثلاثينات، والاربعينات، والثانية جاءت بعدها وتلتها في مظهر شعبي صرف امتدت إلى ما بعد عام ١٨٨٠.

أما المرحلة الاولى: فقد امتدت عقدين من الزمن تقريباً، وتتصف بكثير من التعقيد، والتشابه، بسبب الصراع الحاد الذي كان قائماً بين رائدي المقاومة: الحاج احمد باي، والامير عبد القادر، والذي لم يكن على اية حال، في صالح المقاومة الجزائرية.

فالامير عبد القادر اغتنم فرصة ابرام معاهدة واد تافنة اواخر ماي ١٨٣٧ ومد نفوذه، وسيطرته إلى الشرق الجزائري، وكون لنفسه ثلاث ولايات هي:

- ولاية برج حمزة (برج البويرة)، واولى عليها البطل المجاهد احمد الطيب بن سالم، وتشمل معظم جبال جرجرة، وحوض الصومام، وجزء من جبال البيبان الغربية.
- وولاية مجانة واولى عليها محمد بن عبد السلام المقراني، واحمد بن عمر العيساوي، والخروبي، وتشمل الجزء الشرقي من جبال البيبان وسهول سطيف، والمسيلة وجبال الحضنة.
- وولاية الزيبان والصحراء الشرقية، واولى عليها على التوالي كلا من فرحات بن سعيد، والحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبد الرحمان بن احمد بلحاج، وتشمل كل الواحات الصحراوية الشرقية، وعلى رأسها مدينة بسكرة قاعدة الولاية.

والحاج احمد باي ركز جهوده بمدينة قسنطينة عاصمة بليليكة حتى انتزعت منه في اكتوبر ١٨٣٧، فانسحب إلى جبال الاوراس، واحمد خدو، واخذ من هناك ينظم المقاومة ويشنّ الحملات العسكرية ضد الاستعمار الفرنسي، واعوانه، وضد خصومه من اعوان الامير عبد القادر. ومن ضمن المعارك التي خاضها. معارك جبال اولاد سلطان، في ربيع عام ١٨٤٤ ضد الدوق دومان ابن الملك الفرنسي لويس فيليب وقواته الضخمة. وقد انتصر فيها الحاج احمد باي انتصاراً عظيماً بعد معارك دامت ثلاثة ايام وحكى عنها في مذكراته، وتعرض لها كل من محمد بن عبد الكريم القسنطيني في رسالته إلى كاهية الكاف، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن في رسالته إلى علي بن سالم اليوغاملي


قسنطينة

ونشرناها في المجلة التاريخية المغربية[1].

غير ان معضلة الحاج احمد باي تتمثل في خيانة صهره بن قانة له، وتآمره، ضده وخلق متاعب وصعوبات جمة له، شرحها في مذكراته وقال عنه بأنه بمثابة امراة إلى جانب فرحات ابن سعيد الذي يلقب بثعلب الصحراء رغم انه خصم له كذلك. وكان ذلك سبباً في اخفاق الحاج احمد واستسلامه للفرنسيين في نهاية ربيع عام ١٨٤٨. ومن ضمن من برز للمقاومة خلال هذه المرحلة: الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر، ومحمد عبد السلام المقراني والحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن. والشيخ الحسناوي بن بلقاسم الحنانشي، والشريف مولاي محمد رفيق الشريف بو معزة والشريف سي موسى الاغواطي، والشيخ بن شابيرة البو سعادي وذلك في جبال البيبان، والحضنة، والبابور، والاوراس، وواد سوف، والمسيلة، وبو سعادة وبسكرة، وبجاية، وغيرها. وقام الكثير منهم بنشاط سياسي لصالح الامير عبد القادر، فراسلوا بايات تونس، ووزراءها لربط الصلة بينهم وبينه، وتمتينها وليحيطوهم، علماً كذلك بنشاط الحاج احمد باي واتباعه وانتصاراته ومن هؤلاء: الحسن بن عزوز، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن، والشيخ الحسناوي، ومحمد بن عبد الكريم القسنطيني، ونشرنا عن ذلك دراستين اثنتين بمجلة الاصالة. والمجلة التاريخية المغربية التونسية.

واما المرحلة الثانية: فطويلة بعض الشيء تمتد إلى ثلاثة عقود من الزمن، وبرز خلالها عدد من الابطال والزعماء، قادوا ثورات وتمردات ضد الجيش الفرنسي الاستعماري، اختلفت في الظروف، والوسائل، والطول، والقصر، والضحايا والنتائج، ولكن اهدافها واحدة وهي طرد الغزاة الاستعماريين واستعادة استقلال البلاد وحريتها. ففي واحة الزعاطشة جنوب شرق بسكرة برز الشيخ بوزيان وابنه والحاج موسى الاغواطي، وغيرهم عام ١٨٤٩، وقادوا ثورة بطولية بلغت الذروة في التضحية، والفداء، رغم العزلة وقلة الامكانيات وضخامة القوات الاستعمارية التي كانوا يواجهونها، وكان عددها حوالي عشرين الفاً واستطاعوا ان

يصمدوا اكثر من خمسين يوماً ويكبدوا القوات الاستعمارية خسائر مادية وبشرية كبيرة.

وفي الاغواط وورفلة، وتفرت، برز الشريف محمد بن عبد الله ورفاقه وخاضوا معارك ضارية ضد القوات الاستعمارية التي قادها بيليسي، وماكماهون وغيرهما من الضباط والجنرالات الفرنسيين وتمكنوا من الاستقلال بالمنطقة مدة من الزمن في مطلع الخمسينات، إلى ان اهتدى الفرنسيون للاستعانة بحمزة ولد بوبكر ولد سيدي الشيخ، وقومه، وكافأوه على عمله بتعيينه خليفة على الجنوب الوهراني[٢].

وفي جبال جرجرة والبابور، وحوض الصومام برز الشريف بو بغلة، والشريف بو صبع، وبو حمارة، والحاج عمر، وفاطمة نسومر، وشنوا بجموعهم حروباً طاحنة ضد الجيوش الاستعمارية، وفتكوا بالكثير منها وكلفوها ضحايا كثيرة ولم تستطع القوات الاستعمارية ان تتغلغل إلى اعماق جرجرة إلا بعد ان جند الفرنسيون عشرات الآلاف من الجنود وكلفوا الجنرال راندون باقتحام المنطقة في ربيع وصيف عام ١٨٥٧ بعد ان عادت قواتهم من حروب شبه جزيرة القرم في شمال البحر الاسود بشرق البحر المتوسط، وكان من ضمن المعارك الكبرى التي خاضها السكان معركة ايشر يضن يوم ٢٤ جوان ١٨٥٧، قرب اربعاء نايت ايراثن.

وفي جبال الحضنة، والخنقة، وبريكة، وبسكرة، برز محمد بو خنتاش البراكتي، والشيخ الصادق الرحماني، اواخر الخمسينات ومطلع الستينات، وقادوا جماهير السكان ضد القوات الاستعمارية في معظم جهات الهضاب العليا وابدوا من البطولة والشجاعة ما جعل شعراء الملحون يتغنون بمعاركهم مثل معركة خنق ام حمام[٣].

وبرز في هذه المنطقة كذلك ابراهيم بن عبد الله، وسي الفضيل بن علي خوجة الباشاغا سي سليمان ولد حمزة ولد سيدي الشيخ، وحفزوا السكان على الثورة وحمل السلاح عام ١٨٦٤. امتداداً لثورة اولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني. وثورة الزواغة وفرجيوة بالبابور شمال قسنطينة.

وفي عام ١٨٧١ برز المقراني، والحداد، بثورتهما، وقادا جماهير السكان إلى المعارك في جبال البابور، وبو طالب، وجرجرة، وحوض الصومام، وونوغة، والحضنة، وجبال الاوراس، وفي واحات اعماق الصحراء، إلى عين الطيبة في اقصى الجنوب، وخاض الثوار والمجاهدون اكثر من ٣٤٠ معركة كبيرة فضلًا عن المعارك الصغيرة، والجانبية، ودامت ثورتهم قرابة عام كامل، وكلفت الفرنسيين ضحايا كبيرة في الارواح، والعمران، والامكانيات الاقتصادية المادية[٤].

وفي عام ١٨٧٦ اندلعت الثورة في واحة العمري بزعامة الشيخ محمد يحيى، والمقدم الشيخ عايش الرحماني، وابدى السكان بطولة وشجاعة رغم العزلة وانعدام الامكانيات المادية والاسلحة، وبعد ثلاث سنوات اندلعت ثورة الاوراس الغربية عام ١٨٧٩ بزعامة الشيخ محمد امزيان، وتحولت جبال وشعاب المنطقة وقراها إلى معاقل للثوار والمجاهدين الذين ضحوا بكل ما لديهم في سبيل انجاح قضيتهم وعانوا ما لا يتصور من المشاق والاتعاب والمآسي[٥].

مميزات وخصائص هذه الثورات

هكذا كان الشرق القسنطيني برقعته الواسعة مسرحاً لعدد كبير من الثورات، والتمردات دامت كما ذكرنا نصف قرن من الزمن وتتصف بالمظاهر التالية:

أولاً: ان احداثها كثيرة ومكثفة في العقدين الاولين: الاربعينات، والخمسينات، وفيما بعد ذلك اخذت تقل، وتتقلص نتيجة للضغط الاستعماري الشرس، مادياً وبشرياً، وتطبيقه سياسة القتل والطرد الجماعي، والتجويع، والتجريد، من الاملاك العقارية والمنقولة.

ثانياً: ان زعماءها كانت تنقصهم فكرة التخطيط، وتعوزهم الاسلحة الكافية، والضرورية، والمتطورة، على عكس عدوهم، ولم يكونوا يملكون إلا الحماس الديني والوطني كسلاح معنوي، والفؤوس والعصي،



مدينة الجزائر

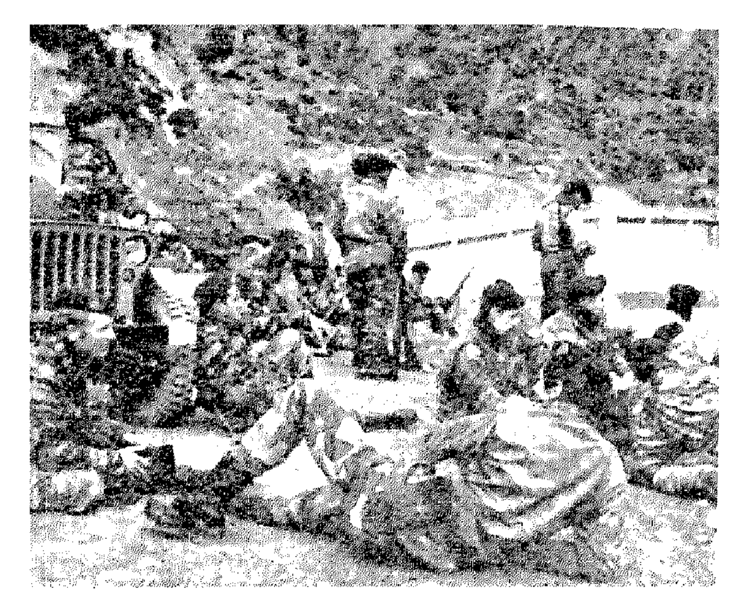
والخناجر، وبعض بنادق الصيد، كسلاح مادي وهي ضعيفة الفعالية كثيراً.

ثالثاً: لعب القادة الدينيون دوراً بارزاً فيها خاصة الرحمانيون الذين كانت الثورة ضد الاستعمار الفرنسي الاجنبي، فطرية فيهم، ويرتمون فيها افواجاً وجماعات دون تردد، بجماهير اتباعهم الكثيرين، في طول الجزائر وعرضها، خاصة الشرق القسنطيني، امثال: الشيخ بوزيان بالزعاطشة، وبن عزوز في واحة البرج، والحداد وعزيز، في صدوق، وابن فيالة ومولاي الشقفة وعمر بو عرعور، في البابور، والحاج عمر، والجعدي في ذراع الميزان، وابن التواتي في مقارس وبريكة وسي الصديق، في بلزمة، وسي الصادق في الحنقة وبسكرة، والشيخ عايش في العمري، والشيخ محمد امزيان في الحمام بالاوراس. وهكذا.

رابعاً: ان هذه الثورات في الشرق القسنطيني، وان ارتبطت باسماء اشخاص، وزعماء عائلات كبيرة ارستقراطية في معظمها إلا ان الذين اكتووا بنيرانها، ولعبوا الدور، بل الادوار البارزة فيها، هي الطبقات الشعبية الكادحة من الفلاحين والعمال، شيوخاً، وشباباً، رجالاً ونساء، وهذه الطبقات الشعبية الكادحة لم تكن لها مصالح او امتيازات تدافع عنها دفعتها إلى هذه الثورات، وانما هو الحافز الوطني الصرف الذي كان ممزوجاً بالعامل الديني في تلك الفترة، وهذا على عكس ما ادعى ويدعي الكتاب الفرنسيون الاستعماريون.

فقد حرص هؤلاء الكتاب ومعظمهم من الضباط والجنرالات، على نعت هذه الثورات بأسباب اقتصادية، واجتماعية، ليفرغوها من محتواها واهدافها الوطنية، وحاولوا ان يصلوا إلى النتائج التالية:

أولاً: ادعوا ان الجزائريين عنصريون متعصبون دينياً وعرقياً، ولا يستطيعون ان يتعايشوا مع الاجانب الاوروبيين المسيحيين، ولذلك كانوا يثورون باستمرار ضدهم، وهو مصدر ثوراتهم المتعددة ضد الفرنسيين والدليل في نظرهم هو كثرة رجال الدين الذين يرتمون في هذه الثورات ويقودونها، وهي دعوى باطلة لأن قبل الجاليات الاجنبية الاوروبية المسيحية قبل عام ١٨٣٠ كانت تقطن بالجزائر، وتعيش في امن



جنود فرنسيون في الجبال

وبحبوحة من العيش، ومنها الجالية الفرنسية التي تمركزت بساحل القالة وعنابة منذ تأسيس مراكز صيد المرجان بها في منتصف القرن ١٦م.

ثانياً: ادعوا ان الجزائريين لا يثورون إلا عندما يشتد عليهم الفقر، والجوع، والعرى، والخصاصة، اما عندما تتحسَّن احوالهم الاقتصادية وينمو ثراؤهم فإنهم يخلدون إلى الهدوء والسكينة ويرضون بحكم الاجانب لهم، ومنهم الفرنسيون، وهذا يعني في نظرهم طبعاً، ان الجزائريين لا يثورون إلا من اجل بطونهم الجائعة، واجسامهم العارية، اما الفكرة الوطنية فبعيدة عنهم، وهو ادعاء استعماري بحت وخطير تبناه معظم من كتب عن ثورات الجزائر التحريرية في القرن الماضي، والحالي، امثال: لويس رين، وروبين، وشاتولي، ولوسياني،

تيباسا

وهيريبون، وبول ازان، وفوانو، وفيرو، وترومي، ولاباسي، ومارقون، وقارو، وبيليسي، وشارل ريتشارد، واوفيستان بيرنارد، وسوسي، ولالمان، وبريبوا، وفورشود، وغيرهم.

وحتى من كتب عنها في القرن الحالي ممن لا يزالون احياء، لم يتخلوا عن هذه الفكرة، وحذوا حذوها امثال جوليان، واجورون، ونوشي، وبرونان، ولاكوست.

ثالثاً: ان معظم هذه الثورات حسب زعمهم ليست وطنية جزائرية، لانها اندلعت بسبب ايحاءات، وايعازات من الخارج، من طرف قوي اجنبية، فاتهموا المقراني والحداد، ومحي الدين ابن الامير عبد القادر، بعمالتهم للبروسيين الالمان، والدولة العثمانية، واتهموا الشريف بو شوشة، وابن ناصر بن شهرة، والشريف محمد بن عبد الله، بعمالتهم للسنوسية، واتهموا آخرين بعمالتهم للانجليز المنافسين لهم في النشاط الاستعماري، وهي نفس المواقف والادعاءات التي حاول الفرنسيون ان يلصقوها بثورة اول نوفمبر ١٩٥٤ عندما ادعوا ان ثوارها (فلاقة) وقطاع الطرق، خارجون عن القانون، دفعوا من جهات اجنبية ليقلقوا امن البلاد والسكان، ووضعوا مشروع قسنطينة الاقتصادي ليقضوا عليها على اساس ان اسبابها اقتصادية.

ولكن الثورة سفهت احلامهم، وكذبت ادعاءاتهم، واثبتت للعالم اجمع ان قضية الاستقلال الوطنية الكبرى، هي اهم اسباب ثورة اول نوفمبر الكبرى عام ١٩٥٤ وكل الثورات الاخرى قبلها طوال القرن التاسع عشر، وقد لعب الدين فيها دوراً بارزاً باعتباره إحدى الركائز الكبرى للشخصية الوطنية الجزائرية، ولا ضير في ذلك، بل انه من مظاهر الفخر والاعتزاز لكفاحنا الوطني.

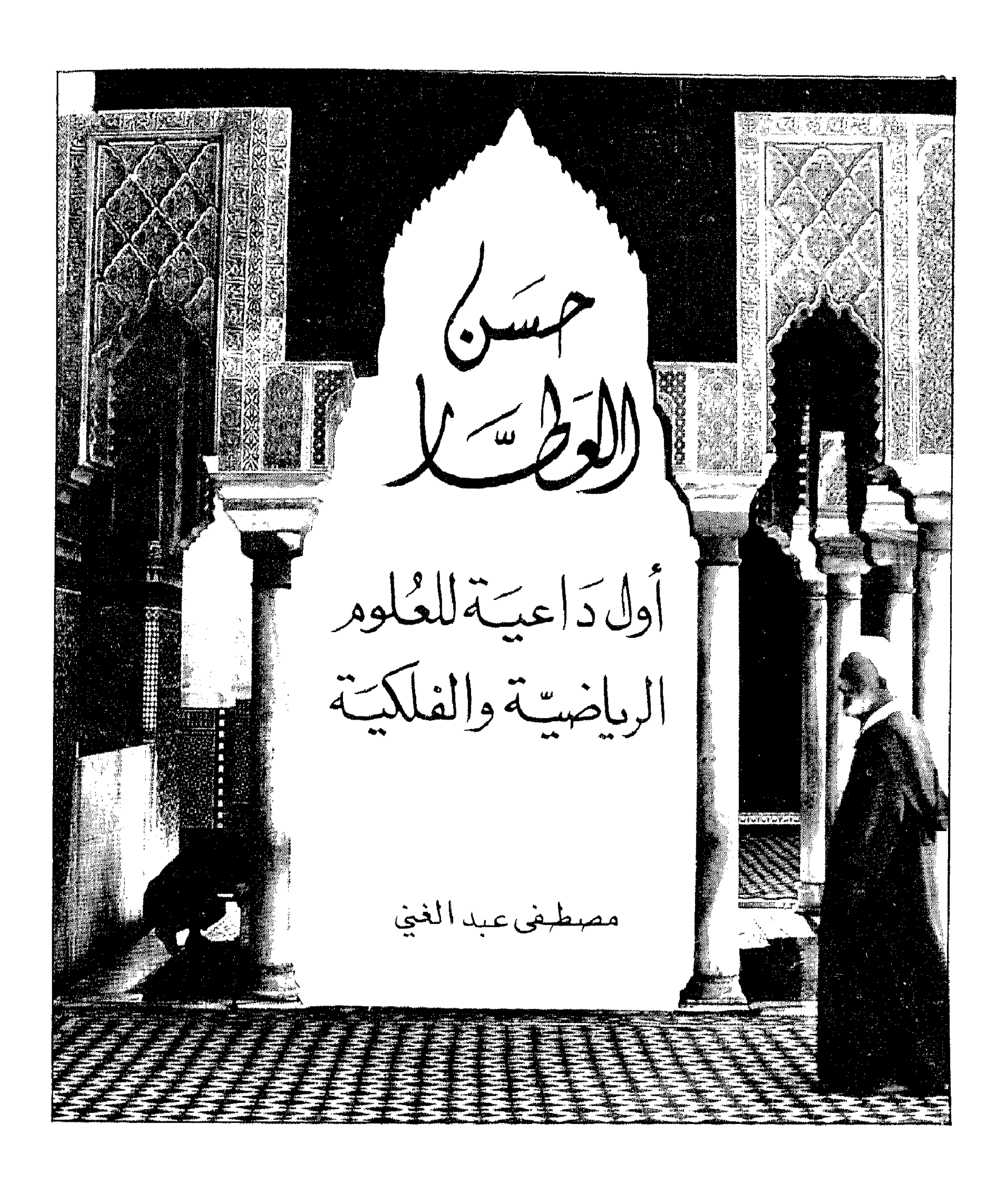
ومما تجدر ملاحظته هنا هو ان السلطات الاستعمارية، خلال عهود ملكية جويلية (١٨٣٠ - ١٨٤٨) والجمهورية الثانية (١٨٤٨ - ١٨٥٢)، والامبراطورية الثانية (١٨٥٢ - ١٨٧٠)، اتبعت سياسة استمالة العائلات /الارستقراطية إليها، واسناد وظائف كبيرة لزعمائها مثل القايد، والآغا، والباش اغا، والخليفة، لتتمكن بواسطتهم من اخضاع السكان لها بسهولة، ودون تكاليف واتعاب كبيرة. وبقيت على هذه السياسة حتى منتصف عقد الستينات، ثم اخذت بعد ذلك تغير من سياستها، واصبحت تميل إلى تطبيق الحكم المباشر والاستفتاء عن وساطة هذه العائلات الكبيرة وزعمائها بعد ان قضت حاجتها ونالت وطرها منها ومنهم.

فعملت إلى التقليل من نفوذها، وتقليم اظافرها، وكبرياء زعمائها، وانزلتهم من مركز الخليفة إلى الباشاغا، ومن الآغا إلى القايد، وهكذا، وهو ما فعلته مع زعماء عائلة اولاد مقران بمجانة، وغيرهم، وهو مصدر ثورات البعض منهم.

وقد الح الكتاب الفرنسيون كثيراً على هذا الجانب، وعلى رأسهم لويس رين ليؤكد الطابع الشخصي لثورتهم، وابعاد العنصر الوطني عنهم ولكننا بينا ان الجماهير الشعبية هي التي لعبت الادوار البارزة والرئيسية وهي في هذه الثورات ليست لها مصالح او امتيازات تدافع عنها، وإنما الفكرة الوطنية الصميمة هي التي حفزتها إلى ذلك. ●

هوامش

(١) انظر: المجلة التاريخية المغربية (تونس - جويلية ١٩٧٤) عدد ٢. ص ٩٤ - ١٠٢.
(٢) انظر: يحيى بو عزيز: وثيقتان جديدتان عن كفاح الشريف محمد بن عبد الله. مجلة الثقافة. عدد ٣٣ (الجزائر - يونيو - يوليو ١٩٧٦) ص ١١ - ٢٨.
(٣) انظر: يحيى بو عزيز: نماذج من مقاومة سكان الواحات.(الاصالة. عدد ٤١. الجزائر - جانفي ١٩٧٧) ص ١١٧ - ١٣٤.
(٤) انظر: يحيى بو عزيز: ثورة ١٨٧١. دور عائلتي المقراني والحداد. (الجزائر - ١٩٧٨) ٤٧١ ص.
(٥) انظر يحيى بو عزيز: انتفاضةسكان الاوراس عام ١٨٧٩. الاصالة. عدد ٦٠ - ٦١ (الجزائر سبتمبر ١٩٧٨) ص ٢٢٢ - ٢٣٣.



هذه صيحة الرجل، الذي شهد القرن الثامن عشر وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة في وقت كان الانسان الاوروبي يتبوأ فيه مكان القمة في الصرح الحضاري الشاهق، بينما المصري في السفح، لا يكاد يقوى على النهوض!

وفي أية دراسة تحاول البحث عن الجذور الفكرية الاولى لمصر في العصر الحديث لا نستطيع اغفال أثر الشيخ حسن العطار فالرجل فضلا عما يتمتع به من الادراك العميق والفهم الواعي لطبيعة الواقع لمصر حينئذ، واتصاله بالفرنسيين واطلاعه على كتبهم، والات

معاملهم، وأجهزة ارصادهم كان مدركا تماما عمق الفجوة بين الحضارتين الاوروبية والعربية في ذلك الحين فالاولى تملك العلم والتكنولوجيا، والاخرى تملك ثقافة عريقة، ولكن الظروف اودت بها إلى التخلف والجمود.

وانطلاقاً من هذا الواقع اختط الشيخ لنفسه نهجاً حاول من خلاله احداث التغيير الذي آمن به، وعمل من اجله بقية عمره.

كان أول من حاول من رجال الدين تدريس كتب العلم الحديث في الأزهر، حيث لم يكن يسمح الا بتدريس المتون والشروح والحواشي التي امتلأت بها المكتبة الاسلامية، واذ تعذر عليه بلوغ هذا الهدف سلك مسلكا اخر، بأن قرأ على تلامذته المقربين كتب الجغرافيا والتاريخ. والى جانب أنه كان شاهد رؤية للحملة الفرنسية حاول تنبيه الاذهان الى ذلك المناخ الذي عاش فيه الانسان المصري مبينا ان أجدادنا لم ينغلقوا على أنفسهم وعلى علومهم الدينية فحسب، بل كانت لهم نظرة في العلوم الاخرى.

وباختصار ادرك الرجل ان الطريق الى الرقي واللحاق بالدول الاوروبية لن تتم الا بأخذ من العلوم العقلية والوضعية حتى يظل طيلة حياته لا يكف عن الدعوة في سبيل تلك الغاية حتى يرى البعض ان النهضة التي استحدثها محمد علي كان العطار من ورائها[١] وبادىء ذي بدء، لا بد لنا من وقفة عند بعض المشاهد التي تعكس الصورة الحقيقية لرجال الأزهر، وقد كانوا يمثلون حينئذ (الانتلجنسيا المصرية) والعطار واحد منهم.

وعلى الرغم من أن الازهر كان يمثل المؤسسة الثقافية طيلة العصر الوسيط، فانه كان صورة مصغرة للمجتمع المصري الكبير، الذي بلغ من التخلف درجة، كان العامل الرئيسي فيها هؤلاء الأزهريون الذين يمثلون طبقة المثقفين في ذلك الحين.

وليس ادل على هذا من أن رجلا، كالجبرتي، كان مع ما يمثله من التنور والادراك الواعي، يركن الى أمور هي الى طباع العامة أقرب منها الى طبيعة رجل الدين، فهو «لا يستبعد وجود الجن او قدرة بعض البلهاء على الكشف عن ضمائر الناس وغير ذلك من الغيبيات والكرامات التي وصف الكثيرين بها ولم يستبعدها»[٢].

واذا كانت هذه هي حال رجل من رجال الدين المثقفين، فماذا تكون حال عامة الناس؟ ذلك ما نستطيع الوقوف عليه في هذا المشهد الذي نرى فيه واحدا من هؤلاء المشايخ وهو يجلب عنزة، ويخترع لها قصة، حين زعم «ان السيدة نفيسة، تكلمت وأوصت بالعنزة! وان الشيخ نفسه سمع كلامها من داخل القبر! وزعم الشيخ الدجال ان العنزة لا تأكل الا قلب اللوز والفستق، ولا تشرب الا ماء الورد والسكر المكرر! فكان الناس يحملون اليه ذلك بالقناطير، وحملوا اليه ذلك بالنذور، وعمل النساء للعنز قلائد الذهب والاطواق والحلى ونحوها وافتتنوا بها»[٣].

والمشاهد عديدة، والقرون الطويلة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية وعلمائها تمتلىء بهذه المشاهد، التي تكون في النهاية دراما التخلف الشرقي التي راحت البلاد فيه ترتدي أردية الغيبيات الى الدرجة التي اشيع فيها: ان القيامة ستقوم بعد يومين اثنين، وحتى انتشرت الاشاعة في مصر كلها، ووصلت الى القرى والأرياف، فاذا الناس يودع بعضهم بعضا، ويقول احدهم للآخر: بقي من عمرنا يومان!

ونحن لا نلوم الناس، او نذهب الى ما يذهب اليه المؤرخون من القاء سوء الحالة التي تردت اليها البلاد على عاتق العثمانيين وحدهم، فالعثمانيون الذين جاءوا الى بلاد الشرق وجدوها على تلك الحالة من السوء، وكل ما فعلوه ابقاء الظروف السيئة كما هي، باستراتيجية الاعتزال الذي فرض على هذه البلاد...

ونحن نجزم بأن العلماء هم المسؤولون عما تردت اليه الاحوال فقد كانت تقع على عاتقهم مسؤولية التغيير، او الاحتفاظ بالثبات النسبي الذي تركته العصور الزاهرة للحضارة الاسلامية.

واذا زعم البعض ان الانتفاضات الشعبية كان يتزعمها رجال الدين حينئذ،

وانهم كانوا يمثلون زيادة حركة المقاومة ضد الظلم، فيكفي ان نعود الى «زهور» ابن اياس، ثم «عجائب» الجبرتي، لنرى ان العلماء ما كانوا يمتطون قمة الانتفاضات الشعبية لو لم تكن لهم مصلحة شخصية، وقد حدث ذلك في كل الانتفاضات، وخاصة في الخمسين عاما التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية.

ما كاد الانسان الشرقي يفيق من الانبهار الشديد امام الحضارة الاوروبية، حتى شعر بحاجته الى من يأخذ بيده، امام لحظات التغيير الحادة، وكان لا بد ان يظهر احد اولئك الرواد الذين ادخرهم القدر لمثل هذه الامور.

كانت الاحداث كلها تشير الى ان العطار هو ذلك الرجل، اذ كان له من الوعي ما مكنه من استقراء اسباب انحدار الحضارة العربية، فتميز على اقرانه بوضع يده على مكان الداء، والى جانب ان الفكر التقدمي وجد مكانا رحبا في عقل هذا الرجل، اذ ان هناك فرقا كبيرا بينه وبين رجل كعمر مكرم، الذي فر الى خارج البلاد فور سماعه بوصول الفرنسيين.

وعمر مكرم على ما كان يتمتع به من تدين شديد، لم يكن يحمل من الفكر سوى الفكر التقليدي الذي لا ينأى بصاحبه عن الجمود، ليودي به في النهاية الى المنفى.

لقد كان للعطار من احداث الحملة الفرنسية موقف مختلف تماما، اذ اثر البقاء في القاهرة ولم يهرب منها كما فعل غيره، ثم اتخذ خطوة ابعد من ذلك حين «اتصل بناس من الفرنساوية»(٤)، للاطلاع على ما عندهم من العلوم والغرائب كما يقرر، ولم يجاوز تلك الغاية طوال وجود الفرنسيين بالبلاد في وقت كان لبعض العلماء مواقف شائنة، فالشيخ خليل البكري لم يكتف بأن يصبح صديقا للفرنسيين عن قرب شديد، بل كان صديقا شخصيا لقائدهم نابليون، بل تورطت ابنته مع الفرنسيين في الوقت ذاته(٥).

موقف اخر يلقي الضوء على عقل العطار: فالانبهار الشديد الذي اصاب العلماء لمرأى مظاهر الحضارة الاوروبية لاول وهلة، استطاع ان يجاوزه، لقد جاوز مرحلة الانبهار بسرعة الى مرحلة الملاحظة والفهم، ثم انتهى الى نتيجة لم يتراجع عنها امتداد حياته فيما بعد، وهي ضرورة الاخذ بالعلوم العصرية.

ولنا ان نتخيل هذا الشيخ المعمم، الذي لا يختلف كثيرا في زيه عن علماء عصره، وهو يصادق احد علماء الحملة، ويدعوه الفرنسيون الى مكتبتهم العامرة، او المجتمع العلمي، فيلبي الدعوة ليشهد الأوراق العديدة التي تتحول الوانها في السوائل التي تلقي فيها، ويعاين الصور العديدة التي انتهى منها علماء الحملة، وهذا المنطاد الذي يعلو وحده الى اجواز السماء.

وتبدوا قمة المد الفكري المستنير عند العطار اذن في ادراكه لاثر العلوم الطبيعية في نهضة الامه وارتقائها. فيكون اول داعية لتلك العلوم العصرية، وقد كان احد هؤلاء القلائل الذين عرفوا قدر الفلك اذا كان عالما بالفلكيات (٦) التي لم تكن غريبة عليه فقد زاول صنعها والعمل بها.

حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية واطلع على آلاتها «الفلكية او آلات الارتفاعات، البديعة العجيبة التراكيب الغالية الثمن» حتى اخذ يدعو الى الاخذ بها، والى التغيير والتبديل.

والحق ان رجلا كالعطار، بحكم استنارته العقلية، وكثرة رحلاته وجولاته (بين ١٨٠٢ – ١٨١٥)، واتصاله بالفرنسيين والتعامل معهم بطرق عدة واطلاعه على كتب الغربيين كما يقرر احد تلامذته، هذا الرجل الذي كان عليه ان يكتشف تلك الفجوة بين حضارة الغرب المتوثبة، وحضارة الشرق التي راحت بثقافتها الضاربة في اعماق التاريخ في اغفاءة طويلة، كان عليه ان يطلق صيحته (ان بلادنا لابد ان تتغير احوالها)...

ومن اجل هذا اختط لنفسه نهجا حاول من خلاله احداث التغيير الذي ارتآه، طول الثلث الاول من القرن التاسع عشر، حتى شهد تحقيق امنيته في النظام التعليمي الذي أقامه محمد علي، والبعثات العلمية العديدة التي ارسلها، ولم يكن تنصيب العطار شيخا للأزهر ١٨٣٠، الا جزء من الخطة التي عول على تحقيقها محمد علي، اذ كان لا بد من وضع الشيخ المستنير على رأس المؤسسة الثقافية

الاسلامية التي طالما وقفت حجر عثرة في طريق التجديد منذ قرون عديدة.

والان، ما هو النهج الذي اختطه الرجل، من اجل تحديث مصر في تلك الاونة، التي كان لا بد فيها لبلد متخلف كمصر من ان تلحق بركب الحضارة الغربية.

وفي اطار هذه الصورة، نستطيع رصد عدة ملامح، ترسم لنا في النهاية الاطار العام لفكر الرجل، من خلال احداث تلك الفترة، أهمها:

اولا - العطار وراء نهضة محمد علي:

ابتداء من القرن ٩ حتى القرن ١٣، كما يقول علي مبارك في خططه، سيطر الجمود الفكري على الجو العام، اذ عطلت المدارس، ولم يبق غير الازهر الجامعة الاسلامية العريقة، لتحيا بعد ذلك في الجمود زمنا طويلا.

واذا اضفنا الى حال الأزهر، حال علمائه الذين «هجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم.. مع ترك العمل بالكلية» لادركنا أية صعوبة يمكن ان يلاقيها رجل كمحمد علي، الذي اخذ على عاتقه بدء حركة التحديث في البيئة المصرية.

وفي هذا المناخ كان لا بد من ظهور رجل كحسن العطار، لكي لا يكف عن الدعوة الى ضرورة التحديث والتغيير في كل مناحي الحياة، وكان دوره في ذلك من الجسامة بحيث ان البعض يرى ان حسن العطار كان وراء حركة التحديث التي بدأها محمد علي، لاحلال المؤثرات الغربية في العقل المصري الحديث.

ثانيا - الثورة على الأزهر:

واذ التقى طموح محمد علي بالأزهري المستنير، لم يكن صدفة ان يتولى العطار مشيخة الازهر عام ١٨٣١، ليبدأ على الفور ثورة تعليمية جديدة، اذ يقوم ولاول مرة بتدريس العلوم العصرية في اروقة الازهر.

ونستطيع تقدير مدى شجاعة الرجل الفكرية حين اخذ بتلك العلوم العصرية في اروقة الازهر، حيث لم تشهد تلك الاروقة منذ القرن ١٢ سوى تدريس المتون والشروح والمنظومات، وحيث كان تعتبر تدريس علوم اخرى خروج عن المألوف وفي هذا «جريمة لا تغتفر».

ولأول مرة نسمع احد مشايخ الازهر، يقوم بأهداء تلامذته تلك الكتب التي تبتعد عن العلم المألوف بالازهر، فيهدي (الاغاني) لاحد تلامذته، ثم يوعز الى آخر بتدريس كتاب (المقامات) للحريري، وفي وقت لم يكن ممكنا فيه تدريس مثل هذه الاشياء ابدا.

ثالثا - الشباب:

واذا كان التفتح على الثقافة الاوروبية هو الهدف الذي دعا اليه طيلة حياته، فقد كان له من عمق النظرة ما جعله يدرك دور الشباب في تحقيق ذلك الهدف الخطير، وقد فعل الكثير.

ويكفي ان نعرف ان رفاعة رافع الطهطاوي - رائد النهضة التعليمية الحديثة - قد تأثر بأراء الشيخ وكان تلميذه الاثير، وهو الذي سمع منه «ومن سمت به همته الى الاطلاع على غرائب المؤلفات، وعجائب المصنفات، انكشف له عجائب كثير من دقائق العلوم، وتنزهت فكرته ان كانت سليمة في رياض الفهوم».

ورحل الى اوروبا، لينهل من المعارف الاوروبية، ليبدأ بعدها، حين يعود، المؤثرات الفكرية التي أثرت في التيار العام للفكر المصري.

ونسمع عن شاب آخر «عياد الطنطاوي»، وقد كان أحد تلاميذ العطار، يتمرد على كتب الحديث والفقة في منهاج دراسته، ويقوم بتدريس نوع آخر لم يكن مألوفا حينئذ.

والان.. وبعد ان مضى قرابة قرن ونصف القرن على وفاة الشيخ حسن العطار، أولسنا، وخاصة نحن الشباب، في حاجة الى ان نقول معه مرة اخرى: «ان بلادنا لا بد ان تتغير احوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها».. وبذلك نساير متغيرات الحياة من علوم العصر وعلوم المستقبل؟ ●

هوامش

(١) حسن العطار - لمحمد عبد الغني حسن ص ٧٨.
(٢) مصر في القرن الثامن عشر ج ١ ص ٣١ لمحمود الشرقاوي. القاهرة ١٩٥٥.
(٣) الجبرتي (حوادث ١١٧٢هـ).
(٤) الخطط التوفيقية - لعلي مبارك ج ٤ ص ٣٨.
(٥) الجبرتي: ٣ / ١١٠.
(٦) تاريخ الصحافة العربية - لفليب طرازي ج ١ ص ١٢٩.



ذكريات اصبحت تاريخاً

سعد زغلول

رئيس مجلس النواب

فكري أباظة

«في سنة ١٩٠٩ عرف «فكري أباظة» التلميذ الحاصل على الشهادة الابتدائية «سعد زغلول» عرفه كرجل ذي شخصية، وكرجل ذي عزة قومية، ولا تزال ذكرى تلك المعرفة محفورة في الذهن حتى اليوم.. اكره ان اذكر «سعدا» وامزج بذكراه الدموع، امقت ذكر الدموع بصدد الكلام عن الابطال، وبصدد الكلام عن الكفاح، وبصدد الكلام عن الانجليز... ولكن الدموع تترقرق في عيني «فكري أباظة» ابن سنة ١٩٠٩. وان تعمد «فكري أباظة» ابن سنة ١٩٢٧ ان يحبس الدموع وان يتجلد...»

كان المرحوم اذ ذاك وزيرا للمعارف. وطردت من مدرسة السعيدية الثانوية بناء على اشارة من عدو التعليم «المستر دنلوب» لاني لا احمل شهادة الميلاد. فدرجت الى عمي المرحوم بالاسكندرية. واصطحبني معه الى وزير المعارف سعد زغلول فثارت ثائرته والتفت الي قائلا:

– باكر صباحا تكون بالمدرسة وسيصلهم تلغراف مني بذلك...

قلت بسذاجة الفتيان:

– باكر الخميس.. أأذهب يوم السبت؟

قال محتدا:

– سافر يا شقي الآن حالا واذهب للمدرسة باكرا!

وسافرت... ودخلت المدرسة معززا مكرما وتعلمت وتخرجت واشتغلت بالسياسة وكنت - بفضل سعد زغلول - خصما سياسيا لسعد زغلول..

تلك هي الذكرى التي جرأتني على سعد زغلول في حياته لدرجة الوقاحة بعض الاحيان. ولكني كنت اذكره دائما بفضله علي. وأذكر بجانب ذلك ان اخلاصي له لا شك فيه. فان فرطت عبارات نزقة فان سعدا رحمه الله كان يعلم ان الغيرة عليه كانت الباعث. وما اجله واطرفه مداعبا حين كان يقول: «انا المحقوق اللي دخلتك المدارس؟!»

● ● ●

والآن اود ان اكتب عن «سعد زغلول» كرئيس لمجلس النواب. وقد هيأت لي ظروف الائتلاف ان ادرس سعد زغلول حق الدرس. فقد ندبني «الحزب الوطني» للمفاوضة مع دولته بشأن الانتخابات، وعدد الكراسي فقابلته منفردا في الطابق العلوي اكثر من اثنتي عشرة مرة. واذا اردت ان تعرف الرجل على حقيقته عرفته في الحجر وبين الجدران لا في المجتمعات الحافلة والمحتشدات العامة.

واستطيع ان اعبر عما انطبع في ذهني من ميول الرجل الوطنية بالجملة المختصرة الآتية: «كم كان يعاني هذا الزعيم حين كان يمثل دور المعتدلين السياسيين».

شخصيته

اذن لندخل في الموضوع مباشرة، ولنبحث عن اول عنصر من عناصر نجاح الفقيد في رياسة المجلس. والجواب كلمة «شخصية»!

وما هي الشخصية؟

اعرفها بأنها مجموعة العوامل التي تجعل للرجل في نفسك منزلة من مجرد النظرة! وما هي تلك العوامل في شخصية الفقيد؟ هي ما يمتلىء به ذهنك:

اولا - من تاريخه: كثائر من ثوار الازهر، وكنابغة من نوابغ المحامين، وكفذ من افذاذ القضاة، وكوكيل للجمعية التشريعية، وكوزير قديم، وكزعيم للوفد، وكمضح منفى مطارد من صخرة لصخرة، ومن جزيرة لجزيرة.

ثانيا - من اسمه: وعندما اقول «اسمه» اعبر تعبيرا «بلديا» ارى انه اوضح تعبيرا. فان تلك الضجة العريضة التي تحيط باسم سعد زغلول والتي كونتها الظروف والكفاءة الشخصية جعلت «لاسمه» في النفوس وقعا وتأثيرا بلغ القمة فتملك واخضع!

ثالثا - من قدرته الخطابية: فله رنة في الصوت فيها من الروعة والجلال ما يأسر اقسى القلوب واشد الخصوم تعنتا. ولا انكر ان للعوامل السابقة فضلها في نجاحه الخطابي...

رابعا - من شيخوخته: فمظهر الرجل وقوامه ومرضه وكبر سنه كلها اسباب جعلت له في النفوس مكانة واجلالا خاصين..

كل هذه العوامل متحدة مجتمعة حين تجلس على كرسي الرياسة في مجلس النواب فمن يستطيع ان يكافحها؟ ومن يستطيع ان يتغلب عليها؟ ومن يستطيع ان يخالف لها امرا؟ وسترى فيما يلي ما يتمم هذه العوامل المكونة لشخصيته. انما قدمت لك الاهم. اضف الى هذا عاملا آخر يختص به كزعيم لحزبه الوفدي فانهم لاعتبارات كثيرة في مقدمتها «الثقة المتناهية» يحرصون كل الحرص كأنصار الا يثيروا الزعيم المقدس. والا يستفزوه ولذلك عقد له دائما لواء النصر في كل المواقف الحرجة مع

في مجلس النواب



المجلس. وان كانت «المعركة» توهم في البداية انه لا محالة خاسرها...

جلده

لله در المدرسة القديمة. كم اخرجت من نوابغ جبابرة. المدرسة القديمة تمتاز عن المدرسة الحديثة «بالجلد» ولقد كان الفقيد خارقا للعادة في جلده. ذلك الرجل الشيخ المصاب بالعلل الموغلة والامراض المتمكنة كان مثلا عاليا في جلده وصبره ومثابرته. ماذا تقول في رجل يفتتح الجلسة في ميعادها سواء اكان صيفا قاسيا ام شتاء قارصا فيحضر هو وتكون الاغلبية من الشبان في الطريق؟ ثم ينتظر على مضض حتى يتكامل العدد وحتى يحضر سكرتيرو المكتب ومراقبو المجلس وهو يبتسم الابتسامة الواضحة المعنى كأنه يقول: «قارنوا بيني وبينكم....».

ثم تتلى تقارير اللجان المملة وهو يتتبع التلاوة سطرا سطرا وكلمة كلمة وحرفا حرفا. وكم راجع المقرر في سطر اغفله او كلمة لحن فيها او حرف حذفه...

ثم يستمع لكل خطيب لا مجرد السماع وانما السماع المقترن بمحاولة الفهم وكم من خطب لا تفهم. وكم من خطب لا تقوى الابطال على احتمالها. ولكنه يسمع ويسمع ويكظم الغيظ حتى اذا انتهى الخطيب بدأ يناقشه فيما ادلى به ويبين بالاسلوب الذي يستحقه مواطن الضعف ومواضع الشرود عن الموضوع...

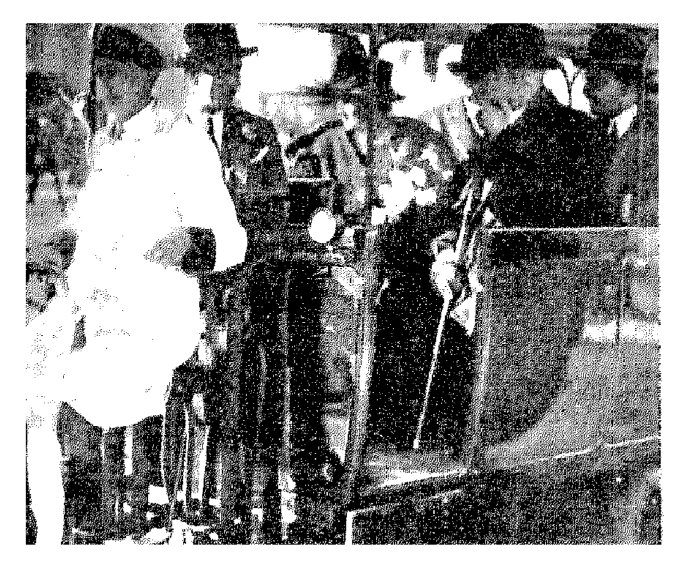
من اربع لست ساعات متواليات وهو يقنع باستراحة واحدة ونحن الشبان الاقوياء لا نقنع بأقل من سبع استراحات غير رسمية نتناول فيها الدخان والقهوة والمثلجات... وان جلسنا ومنينا بكلام غير مهضوم اخذ يحادث بعضنا البعض الآخر للترويح عن النفس.. ثم اذكر سعد زغلول وهو يهبط على اللجان فجأة يراقب سير اجتماعاتها ومواظبة اعضائها وقوة استمرارها في العمل...

ثم اذكره وهو يضع الاحصاءات الدقيقة عن الاعضاء المعتذرين والغائبين، وعن القرارات الصادرة والموقوفة، وعن المشروعات المنتهية والتي تحت البحث، ثم اذكره وهو يشتغل مع موظفي المجلس في المراجعة وفي المسائل الادارية، ثم في مكتب المجلس يبت فيما يعرض عليه مما هو من اختصاصه، ثم في فترات الاستراحة من مقابلات خطيرة، بل لعلها كانت اخطر المقابلات، تحل فيها المشاكل والازمات، وتتفادى فيها مواطن الاحتكاك ومواضع الخلاف!..

ثم اذكره وهو مأخوذ بشهوة الفن القانونية حين يعرض بحث من بحوث الدستور او التشريع. كيف يدرس الموضوع في منزله دراسة الطالب ثم يطرح مجهوده المثمر على مجلس النواب بأسلوب الباحث المتواضع لا الرئيس المتحكم!

هذا هو المريض الشيخ الفاني. هذا هو الاثر القيم من آثار المدرسة القديمة. يضرب للناشئين مثلا ساميا من امثلة الجلد العنيف والله اعلم اي آلام جسمية ونفسية كان يحسها وهو يؤدي واجبه ذلك الاداء الغريب الاطوار!

كنا نراقب ذلك كله فيعترينا كثير من الخجل فنصغر امامه بتقصيرنا ويكبر امامنا بجهده وبهذا التباين تتحكم شخصيته في شخصياتنا فتكتسح رياسته كل عقبة في الطريق بقوة خلاله وهذا سر من اسرار نجاحه...



سعد زغلول سنة ١٩٢٢



ظرفه

ظرف سعد الطبيعي خلاب لا يجارى وقد خالط الفقيد من نشأته جميع الطبقات وكان اصدقاؤه من خلاصة الادباء والظرفاء و«الحظ» خير مدرب على حضور الذهن وسرعة البديهة وروعة «النكتة» بفضل كل تلك العناصر كان خفيف الروح لدرجة السحر ولا غرابة اذا استعان بهذه الهبة الربانية على الترويح عن نفسه وعن النواب في ادق المراكز واحرج المواقف!

حجته

سعد زغلول من اساطين المنطق من زمن بعيد. مغرم بالمناقشة، ومغرم كل الغرام بأن تكون له الغلبة دائما.. وهذا امر طبيعي لا اراه يصلح لان يكون محلا للنقد...

وغرام بالمناقشة وبالزام الحجة غيره غرام نبت معه منذ نشأته... الم يكن ازهريا ومحاميا وقاضيا؟ ظهرت آثار هذه الصفة القريبة من السليقة في تاريخه كوزير وكوكيل للجمعية التشريعية وكزعيم للوفد... حياته كلها حياة نضال وقراع والمناظرة وحجج، وحياته كلها حياة مران مستمر جاد في عالم المناقشة والمناظرة.

ولقد اكسبه ذلك المران قوة هائلة في المناقشة اذ ان تلك السنين الطويلة التي قضاها في جو اللجاج جعلت المناقشة عنده «فنا» ذا اصول وقواعد واساليب يعلم اسرارها هو وتخفى على غيره. - ويخيل الي - وانا في مقام تخليد الحقائق - ان سعدا العظيم كان يكبر عليه في بعض الاحايين ان يقهر في مناقشة بحكم الاغلبية.

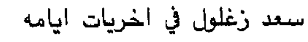
وارى ان ذلك من صفات البطولة والجبروت، وكم جاهد وكافح في موضوع واحد ليتغلب على مناقشيه فاذا عسر الامر عليه تحايل واجله للجلسات المقبلة ثم استرد قواه وهاجم وكافح كفاحا ملحا مندفعا فاذا سدت السبل واستحكم الراي حاول التأجيل بشكل خلاب يستهوي الالباب وغالبا ينجح في مناورته. فاذا لم تجد هذه الوسيلة رجع لعطمته كأب وزعيم وضحك ضحكة الذي فرغت جعبته قائلا بصوت حنون لذيذ: «طيب اللي تشوفوه» قوة المنطق، تلك الهبة السامية التي منحه الله اياها كانت عنصرا قويا جدا من عناصر نجاحه كرئيس لمجلس النواب. وكانت تجدي من ناحية اطلاعه على اسرار الحكومة لا يريد ان يطلع المجلس عليها وقد يكون فيها مقنعاً ولكن في اذاعتها خطرا.

فهو يستعين بقوة حجته على توجيه التيار الى الجهة التي تتفق واتجاه تلك الاسرار بغير احتياج الى اذاعتها. والله اعلم كيف ولم كانت تسيرنا تلك الحجج القوية.. وكان بحكم «ذوقه السليم» فلا يخطىء، كان يستعين على انصاره بمكانته الشخصية عندهم وكان يستعين على الشارد من موضوع الكلام باثارة زملائه عليه وكان يستعين على عضو الحزب الوطني وهو في تيار اندفاعه وتطرفه على المنبر بابتسامة ظريفة وجملة خفيفة يلقيها في اذنه بصوت خافت فيه نغمة من نغمات «المناجاة الخصوصية» غير المسموعة فيغريه بترك النقطة الحرجة او يغريه باختتام الكلام!!

انصافه

تلك هي الخلة الغالية الكريمة التي اكبرت سعدا في انظار خصومه السياسيين. كان لا




سنة ١٩٢٤

يفرق بين الاعضاء ولا يتأثر باللون الحزبي. الجميع عنده – كرئيس للمجلس – سواء. وكم اشتد على انصاره وحمل عليهم حملاته المهدمة في سبيل الصالح العام لا يهمه ان يستغل خصومه هذا التهديم او لا يستغلوه ولمواقف انصافه لخصومه السياسيين تأثير عظيم في نفوسهم وليس انبل من الانصاف؟ انصاف القادر على غير الانصاف!

هذا وتر حساس جدا من اوتار الجاذبية نحو رئيس المجلس عرف سعد كيف يوقع عليه فأتقن الايقاع. وكان حريصا على ان يحول دون تكهرب جو المجلس بما يقال في الخارج من اعضائه في سبيل الحزبية. طالبا الى كل من يريد التشفي او اثارة موضوع الخلاف ان يفعل هذا في غير قاعة المجلس. وبهذا صان رياسته عن ان تتورط في التعصب والتحيز الحزبي ففاز بأجل وافخر ما يتحلى به رئيس نبيل!

منقذ الحكومة

ولا بد ان ندون هنا ان سعد زغلول كان بحق «منقذ الحكومة» فلكم استهدفت لحملات قوية فكان يتظاهر «بالحياد» في مبدأ الامر حتى اذا وجد الخطر يوشك ان يحدق بها تدخل

واجرى عملية الانقاذ باخلاص...

سعد زغلول في اخريات ايامه



من آخر صوره



لا شك ان الرئيس الراحل كان حصنا حصينا تحصنت فيه سمعة المجلس في كثير من المواقف والقرارات. شخصيته الضخمة كانت تحول دون حملات الجماهير على سمعته وكرامته. وكانت طبقات الموظفين والمزارعين وغيرها من الطوائف تحرص الحرص كله الا تمس المجلس فتمس رئيسه ضمنا كما ان الجهات الرئيسية الاخرى كانت تتحمل ما يدور داخل المجلس حاسبة للزعيم القوي الحساب الحكيم...

المواقف السياسية

اقرر ان موقف سعد في المواطن السياسية لم يكن موقفه الطبيعي مطلقا وقد صدرت كلمتي بهذا من اول الامر. كان الرجل على ما يخيل الي ينتظر ويصبر ليرى نهاية سياسة حسن التفاهم ولكن لا انكر ان امرها طال وانه لو ظل الزعيم حيا هذا العام ما رغب ولا رغب له محبوه والمخلصون له في ان يظل الحال على ذلك المنوال الممل القاضي على جهود الثورة المباركة. ولكن شاء القدر ان يختطفه قبل ان يتجلى على الجماهير بعد فترة التربص بمظهر الزعيم المستأنف للنضال.

مهمة غالية يحملها عنه ان شاء الله خلفه المفعم بالحياة والشباب... موت سعد خسارة عظمى للحياة النيابية في مصر.. لقد كان رحمه الله استاذا وقدوة وحصنا ومثلا عظيما للنائب الذي اقسم اليمين على ان يعمل وان يخلص للبلاد. رحمه الله رحمة واسعة واسكنه فسيح الجنان وللوطن البقاء...



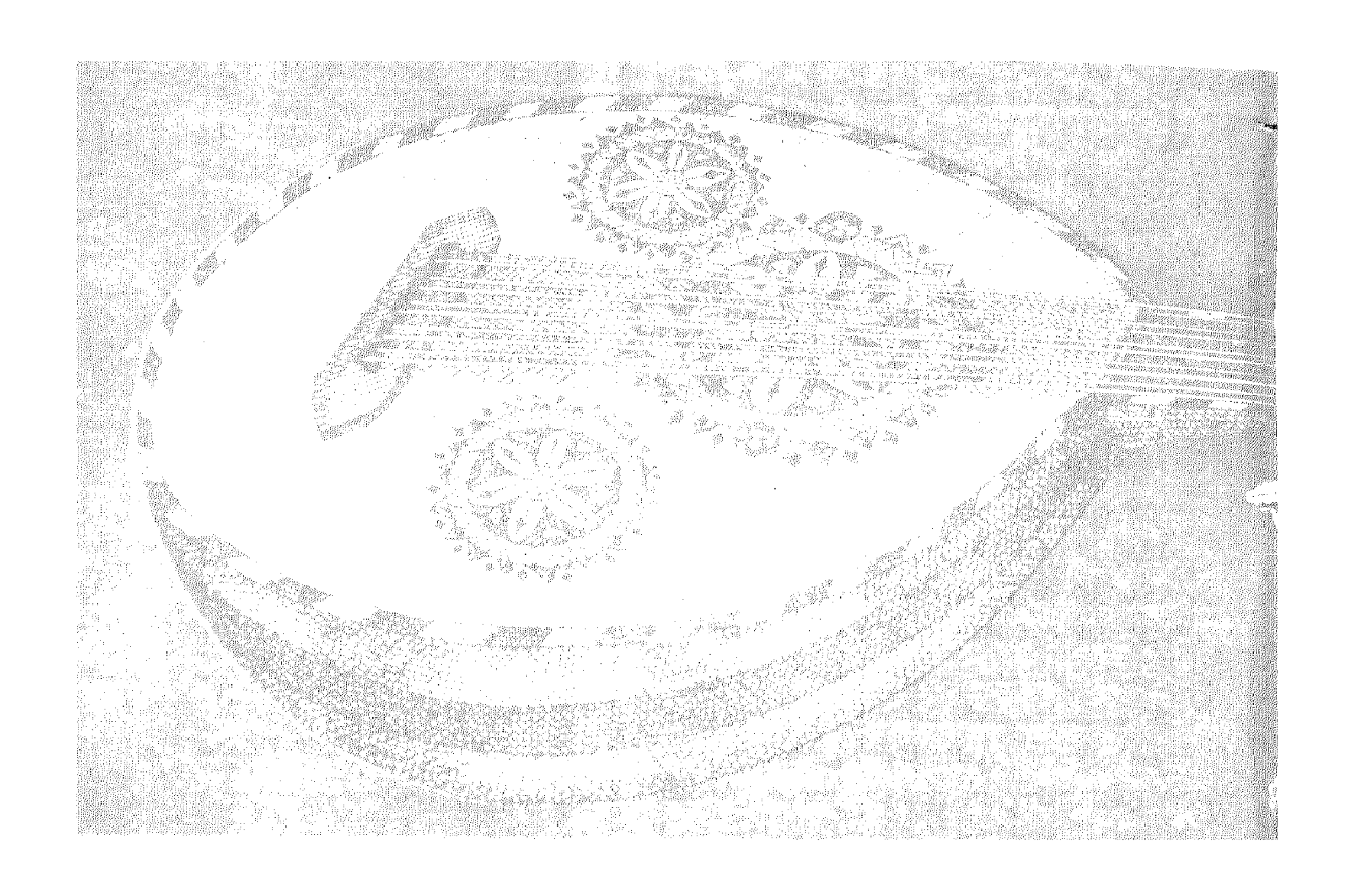
الوطنية اساس اعمالكم، اقبلوا على علومكم فحصّلوها فاننا محتاجون للعلم وللعلماء. ولكن لا خير في العالم اذا لم يكن وطنياً

سعد زغلول



بعد ان عرض الكاتب في الحلقة الاولى لبدء السهرة في بلاط هرون الرشيد وكيف تنظم، زمناً ومكاناً، مطربين وعازفين وعرض لقواعد اللياقة لدى موسيقيي القصر ولباسهم، يفصل في الحلقة الثانية والاخيرة وصف السهرة ذاكراً القصائد والحانها وكيفية استحسان الخليفة للغناء ومن ثم تقديمه للمكافآت... فتكون الحلقتان امتع عرض لتاريخ السهرات الغنائية في بلاط العباسيين.

يعطي الخليفة اشارة البدء عندما يطلب من احد المغنين قطعة معينة او يترك له اختيار القطعة الاولى. فاذا اراد التقيد بمركز المغني اعطى اشارته اولا الى ابراهيم الموصلي او ابن جامع او اي من كبار المطربين، وعلى المطرب في كل الاحوال انتظار اشارة الخليفة، إذ هكذا تقضي المراسيم(٥٢)، لا في بداية الحفلة فقط بل بالنسبة لكل مغني يأتي دوره حتى لو كان ذلك حسب ترتيب جلوسهم والمفروض في كل مغن ان يتمكن من مصاحبة غنائه على العود، غير ان هناك من ضمن موسيقيي البلاط من يقوم بالعزف فقط، فأحدهم على العود وآخر على الناي وهكذا وهؤلاء يصاحبون عادة قطع الغناء المعادة. والايقاع يحدده عازف الطبلة(٥٣)، وقد سبق ان سمعنا ان هارون الرشيد كان يصنف العازفين في المرتبة الثانية بعد المغنين وهذا يعود الى انه لم يكن من المألوف الاستماع الى الموسيقى وحدها ومهمات العزف المنفرد تنحصر في المقدمة والختام وما بين المقاطع(٥٤)، غير ان بعض عازفي القصر كانت لهم المكانة الاولى بين اقرانهم، وصادف مرة ان امتنع عازف ناي يجلس في الصف الثاني عن مصاحبة ابن جامع مستندا الى القاعدة الساسانية التي تقول إن



العازف الاول يجب ان يصاحب المغني الاول، فاذا امره الخليفة غير ذلك كان له الحق في الامتناع عن العزف(٥٥). وقد نجح عازف الناي هذا بالتمسك بموقفه اثناء الحفلة فحصل حالا على ترقية وانتقل الى الصف الاول، وبعد الحفلة منحه هارون الرشيد، تقديرا له ولموقفه، السجادة المفروشة في الصالة(٥٦).

عندما يطلب الى المطرب اختيار القطعة التي سيغنيها فانه يتصرف حسب العادة المتبعة، حيث يبدأ باغان كلماتها جليلة منعشة ينبعث وزنها من ايقاع بطيء تستند الى الحان العود الوسطي، وقد تكون ايضا اغان ونشائد ايقاعية تبدأ باستهلال ايقاعي حر(٥٧).

وطبيعة المقطوعات تتبدل مع تقدم الوقت في الوصلة الثانية، فمن الاناشيد الهادئة المعتدلة عند الافتتاح ينتقل الغناء الى القطع الصاخبة يصاحبها ما يلائمها من موسيقى وايقاع، ثم اغاني الحب والخمر السريعة الخفيفة الحالمة. وفي ختام الامسية تعقب قطع هادئة. ان هذا التسلسل الغنائي ذا الطابع المتبدل الذي يتغير بين وصلة واخرى ادى بمرور الزمن الى ادخال صيغة معينة طابعها تسلسل موسيقي كبير لقطع معينة بتسلسل معين اطلق عليها «النوبة». وقد وصلت هذه اوجها في القرن الثالث عشر وحتى يومنا هذا نجد نوعا متطورا من هذه «النوبة» في المغرب(٥٨).

والآن تجدر الاشارة الى ما يغنيه المطربون وطريقة غنائهم اي بعبارة اخرى التطرق الى كلمات الاغنية ولحنها. وبالامكان تقسيم كلمات الاغاني الى ثلاث مجموعات:

المجموعة الاولى قوامها اشعار مستساغة ومعروفة لكبار الشعراء القدامى والتي سبق ان لحنها وغناها بنجاح المطربون السابقون. ولم يكن في اعادة غنائها ما يعيب على المطرب بانها مقتبسة، بل العكس هو الصحيح إذ يفخر المطرب بانه ساهم في ادخال تجديدات عليها(٥٩).

والمجموعة الثانية هي قصائد للشعراء المقربين الى الخليفة، اي شعراء البلاط، وهي

المجموعة الواسعة جدا. وقد وجد ابراهيم الموصلي ان هارون كان يقدر قصائد «ذي الرمة» ويحفظ العديد منها. فبدأ بتلحين قصائد هذا الشاعر وتمكن، بفضل دهائه وبعد نجاح الاغنية الاولى من احتكار حق تلحين قصائد هذا الشاعر بحيث ضمن لنفسه مكافآت تلحينها. وقد تحدث ابنه اسحق عن اكثر من الف من قصائد ذي الرمة لحنها ابراهيم[٦٠]، وعن مبالغ طائلة - بالنسبة لهارون الرشيد - جناها مكافأة له على ذلك[٦١].

اما المجموعة الثالثة فهي القصائد التي نظمها شعراء القصر او المطربون انفسهم في المناسبات الخاصة كعيد ولادة الخليفة او مولد امير او الاعياد الاسلامية والفارسية. واحيانا ينظم المطربون القصائد لاغراض خاصة، فاما طلبا لزيادة مخصصاتهم او شفاعة لاحد اصدقائهم لتعيينه ضمن الندماء او طلب السماح والعفو من الخليفة عن زلة ارتكبها هو او احد اصدقائه. كانت هذه تنظم في قصائد تلحن وتغنى في مناسبات واوقات ملائمة.

وكان للعديد من المطربين قابلية نظم الاشعار الخاصة بالمناسبات، غير ان واحدا منهم فقط كان شاعرا موهوبا يتمتع بقابليات عالية في نظم الشعر وهو اسحق الموصلي إذ اعتبره معاصروه من الشعراء القديرين إذ نجد اشعاره في مراجع القرون اللاحقة[٦٢].

والقصائد التي لحنت للامسيات الموسيقية اساسياً مجموعة كبيرة ابتداء من قصائد ما قبل الاسلام الى اشعار الخمر الماجنة في العصر العباسي. ولم يكن غريبا ان يحفظ المطرب آلاف القصائد لأغانيه[٦٣]، إذ بالاضافة الى الأغاني الاعتيادية كان الخليفة يتوقع ويفترض في كل مطرب ان يكون قد هيأ اغان خاصة بالمناسبات.

والآن لننتقل الى الموسيقى لنبحث طبيعة الالحان التي كان المطربون يقدمونها في اغانيهم في امسيات هارون الرشيد الموسيقية محاولين ترجمة وصفها التحريري الى موسيقى نظرا لعدم تدوينها - حسب المعروف - في «نوتة موسيقية».

ويعتبر كتاب الاغاني الكبير لابي فرج الاصفهاني اهم مصدر قدم لنا المصطلحات الموسيقية لعصر هارون الرشيد غير اننا عند قراءته نجابه صعوبتين - الاولى ان المصطلحات تختلف من مدرسة الى اخرى فمثلا بين ابراهيم الموصلي وابن جامع وبين اسحق الموصلي وابراهيم ابن المهدي، والثانية هي افتراض هذا الكتاب بأن هذه المصطلحات معروفة، لذا فقد بقيت الى الان اوصافاً لألحان موسيقية غير مفهومة ويصعب ايضا تحديد بعض نقاطها، غير ان بعضها بالامكان اثباته - فالنغم الذي يعتبر اساس الموسيقى التي تقدم في البلاط كان نوعا من الموسيقى البيزنطية والسريانية في ذلك العصر ولم تكن له اية علاقة بما نطلق عليه اليوم «اللحن الشرقي النموذجي»، فكان التلحين يتم على اساس النغمات الكاملة وانصاف النغمات حسب ما تتطلبه وضعية ربط اوتار العود[٦٤]. وقد ذكر ايضا ان اسحاق الموصلي الذي كان لنظريته السبق على نظريات غيره - كابراهيم المهدي مثلا - كان يحاول دائما منع التجديدات من الدخول على موسيقاه، وكانت احدى هذه التجديدات في عهد اسحق - مثلا - التثليث في مقام الراست المعروف اليوم[٦٥]. ومما يعتبر دليلا ثابتا على قوة مدرسته وطابعها الخاص ان المطربين الذين اتوا بعده لم يقوموا خلال مائتي سنة باقتباس هذا المقام، الذي يعتبر نموذجيا بالنسبة للموسيقى الشرقية الحالية، في نظرياتهم الموسيقية[٦٧]. ان الايقاع الذي تستند اليه الالحان يقابل مبدئياً «الاصول» في الموسيقى العربية الان، غير انها كانت اقصر بكثير وابسط إذ قلما زادت فترة ايقاعية على اربع ضربات[٦٨]، حددتها - كما هي عليه اليوم - الآلات الايقاعية.

اما اللحن بحد ذاته فقد انحصر نطاقه في نغمات قليلة بحيث ان المغني الذي يتمتع بصوت متعدد الطبقات، كابراهيم ابن المهدي مثلا، كان يتمكن من غناء نفس اللحن في سلالم موسيقية مختلفة[٦٩]. غير ان الاغاني، نظرا لطولها وتعقيد لحنها، كانت - حتى في هذا النطاق الضيق - صعبة الى درجة بحيث

لم يتمكن اي من مطربي البلاط من تقديم بعض اغاني اسحق الموصلي بصورة صحيحة حتى ولو قضى فترة طويلة في التمرين(٧٠). اما فيما يتعلق بطول القطع الغنائية فيروي اسحق نفسه بانه منذ مائة سنة قبل عهده كانت قد لحنت اغان تتألف من قصيدتين كاملتين الحانها في ٥٤ «دور»، وهذه تعتبر - عند المقارنة بحذر - اكثر من مائة من الضربات الايقاعية.

وكان لاسحق نفسه اسلوبه ووصفه المتمعن الخاص نقرا عنه في كتاب الاغاني: «واكثرها يبتدي الصوت فيصبح فيه - وذلك مذهبه في جل غنائه، حتى كان كثير من المغنين يلقبونه الملسوع، لانه يبدأ بالصياح في احسن نغمة فتح بها احد فاه - ثم يرد نغمة فيرجحها ترجيحا وينزلها تنزيلا حتى يخطها من تلك الشدة الى ما سيوازيها من اللين، ثم يعود فيفعل مثل ذلك فيخرج من شدة الى لين ومن لين الى شدة»(٧١). وبهذا فانه تلحين اساسي كما في الموسيقى الشعبية لشعوب مختلفة والموسيقي بصورة عامة، يذكرنا بالتسلسل الاغريقي القديم الذي لا يرتفع، كما هي الحال بالنسبة لتدرج الالحان في موسيقانا اليوم، بل ينحدر، ويلاحظ من هذا الوصف ان اسس «المقام» لم تكن معروفة بعد حسب الظاهر.

وبعد معالجة كلمات وموسيقى الاغاني نعود الى وصف وقائع السهرة:

جرت العادة عندما يقدم المغني اغنية تطرب الخليفة ان يحتسى هذا اثناء الاداء كأسا من الخمر يفرغها حتى نهايتها(٧٢)، كما ان المشروبات تقدم الى الموسيقي ايضا، غير ان المراسيم تقضي عليهم بان لا يشربوا عندما يشرب الخليفة(٧٣). ولم يتبع هارون الرشيد، عندما يكون في جلسة خاصة لا يحضرها الغرباء. احكام الاسلام الخاصة بتحريم الخمر. ويقول اسحق الموصلي - «عندما يخبرك احدهم بانه رأى هارون الرشيد يشرب شيئا آخر غير الماء فهو كاذب، إذ لم يصادف ان حضر جلسة شراب غير جواريه المخلصات وندمائه»(٧٤).

وكانت الايام التي يشرب فيها الخمر ثابتة، وبالنسبة لبقية الخلفاء العباسيين، باستثناء هارون الرشيد، نعرف حتى اسماء هذه الايام(٧٥)، وكانت هذه مشكلة بالنسبة للمطربين المتدينين او الذين لا يشربون الخمر، ومع ان الاغلبية كانت ممن اعتادوا شرب الخمر وتحمل كميات كبيرة منها فلم يكن يغيظهم امتناع البعض عن الشرب او عدم تذوقهم للخمر(٧٦).

وعندما كان الخليفة يستسيغ قطعة معينة، يهتف «احسنت». وكان الرشيد من الخلفاء الذين يكتفون بهذا وقلما كان يصرخ او



نقوش عاجية من القرن الخامس هـ. تمثل عازفين..

راحت باشد از انکه دورتر بود و هیچ سازی در حجام نتوان گفت الا نای سیاه و صورت مزمار اینست

منفخ

فصل پنجم در تصنیع پیشه پیشه را نی میباید ساخت که بغایت خشک بوده باشد انکه نا خشک
باشند تا در حالتی که خشک شده باشد بریده و بهترین نی از بهر پیشه آنست که از نی
زارها از بغداد می آرند و می باید که در غایت راستی باشد پیشه اگر حاد باشد می باید که طول آن از یک
شب کم نباشد و از یک بدست و دو انگشت زیاده نباشد و بعضی هفت سوراخ میکنند و
ی بر پیشه ثقیل او دو بدست و چهار انگشت کم نباشد و سوراخ این فراختر باید کرد و
هر که از منفخ دورتر باشد صورت پیشه اینست

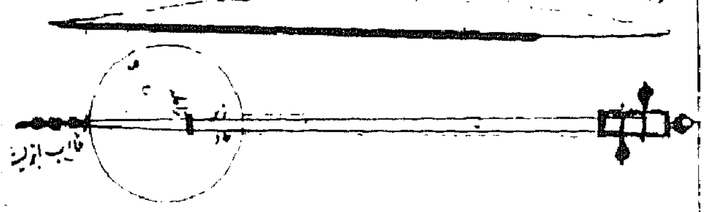
المزمار وكتابة فارسية من القرن الثامن الهجري تصفه...

يصفق بيديه اعجابا[٧٧]، او ينادي المطرب مادحا اياه[٧٨]، كما انه لم يحدث ان قفز من مكانه او بدا بالصراخ والرقص او تمزيق ملابسه طربا كما كان يفعل سلفه واخوه الهادي حسب ما يروى عنه[٧٩]، واذا نالت قطعة غاية اعجابه واستحسانه طلب اعادتها واحيانا مرات وصادف ان قطعة معينة كانت تعاد بمفردها طيلة السهرة حتى يتقنها جميع المطربين الحاضرين[٨٠].

وبصورة عامة قلما استمر برنامج الامسيات الموسيقية لهارون الرشيد مكبلا بقيود المراسيم، إذ كانت الخمر تلعب دورها في تخفيف هذه القيود. وبين آونة واخرى كان الخليفة يسأل عن ظروف نشأة اغنية معينة، وربما يظن البعض ان الحديث عن ذلك يمر سريعا. والواقع هو غير ذلك إذ ان المطربين الذين كانوا يستوحون اغانيهم من «الجن» او حتى «ابليس» كانت لديهم الكفاية من القصص المثيرة عن نشأة اغانيهم[٨١]، والقصة الواردة في الف ليلة وليلة عن ابراهيم الموصلي تدور حوادثها حول لقاء مع الجن[٨٢]، وكذلك فان القطع القديمة غالبا ما كانت ترتبط بها قصص يرويها مرة ما احد المطربين له دراية واسعة باحوال وظروف المطرب المتوفي الذي وضعها. واحيانا كانت بعض القطع الغنائية تنظم وتلحن ارتجالا اثناء السهرة وجلها يتعلق بوصف اثاث غرفة او رداء او وصف الجو او باقة ازهار او عندما يطرح الخليفة اسئلة عن فن التلحين والعزف. وسمعنا عن مباريات في الغناء او العزف لمعرفة الاحسن او من يحفظ اكبر قدر من الاغاني[٨٣].

وكانت السهرة تقطع في اوقات الصلاة[٨٤]، فينهض الموسيقيون ويقيمون الصلاة مع الخليفة، غير ان هذا لم يكن شرطاً اساسياً، إذ غالبا ما ينتهز الموسيقيون فرصة الفترات هذه للتقدم الى الخليفة بمطلب او بشكوى من تفضيله احدهم على الآخر، خاصة إذا كانت معيشة المغني او الملحن تتوقف على عطايا الخليفة، لذا فلم يكن غريبا ان تقدم القطع القديمة والمؤلفات الخاصة لقاء اجرة او هبة، ومن جهة اخرى لا يصعب فهم موقف بعض الموسيقيين – الذين ينعتهم الاخرون بالبخل – الذين لا يقدمون مؤلفاتهم الخاصة الا ليحتفظوا وحدهم بمكافآتهم. وفي حالات كهذه يتبع الموسيقيون طريقة فريدة مجربة حيث ان اثنين من موسيقيي بلاط الرشيد معروفون بقابليتهم على الحفظ سريعا إذ يحفظون قطعة عند سماعهم اياها مرتين، لذا يستغل فترات الصلاة ليتعلم المطرب بمساعدة احدهما اغنية زميله، وكذا وقائع لم تكن نادرة بحيث انه في الوصلة الثانية من السهرة عندما يكتشف حادث من هذا النوع، فان وجود الخليفة هو وحده الذي يمنع وقوع شجار بينهم[٨٥].

وهنالك فترة من نوع آخر وهي عندما يزور الخليفة اثناء الامسية لمدة ما جواريه[٨٦]. وعند عودته يستقبله الفنانون وقوفا حتى يأخذ مكانه ويجلس[٨٧]. وقبيل نهاية السهرة وعندما يكون الخليفة في حالة يطغي عليها المرح والسرور يسمح للموسيقيين بالتقدم اليه بطلب او رجاء خاص، فاذا كانوا جالسين خلف الستارة قام الحاجب بايصال طلباتهم الى الخليفة، اما إذا كانت الستارة مرفوعة قدموها بأنفسهم او ابلغوه اياها شفهيا. وغالبية هذه الطلبات تتعلق بمكافآتهم او طلب المساعدة لبناء دار جديدة او تأثيثها او نفقات لتربية اولادهم.



... وكذلك الربابة الاولى

وكلما كان الشخص لبقا في تقديم طلباته هذه، كأن يقدمها بصيغة قصيدة او اغنية، كلما كان الخليفة اكثر عطاء وكرما(٨٨).

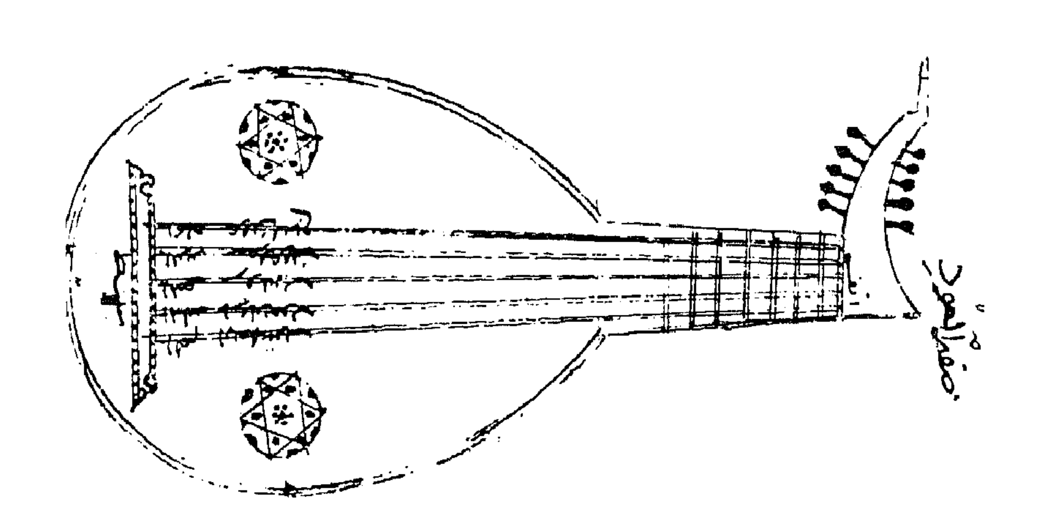
نأتي بهذا الى نهاية السهرة لنتطرق الى الرواتب والمكافآت. كان المغنون والشعراء والندماء المعينون لدى البلاط يتلقون رواتب ثابتة «الرزق» غالبا ما يأمر الخليفة، بعد وفاتهم باستمرار صرفها الى اسرهم(٨٩). وبالاضافة الى ذلك يتلقى الندماء في فترات شبه منتظمة «جوائز» لفعاليات ممتازة قدموها في الحفلات، وتدفع هذه المبالغ عادة في نهاية السهرة(٩٠)، والحاجب هو الذي يقرر عادة اما تسليمهم هذه المبالغ بعد السهرة مباشرة او ايصالها لهم الى دورهم(٩١). ولا تكون المكافآت دائماً مبالغ نقدية، فمن وقت لاخر يهدي الخليفة ملابس الشرف «خلعة» يحضرها من المخازن الخاصة في القصر خادم خاص بها. وتكون عادة إما بدلة واحدة او اكثر واحيانا مجموعة كاملة من الملابس، كما يهدي الخليفة ايضا العطور وحيوانات الركوب والسروج واللجم او وسائد وطنافس من صالة السهرة(٩٢). وقد سمعنا ان الرشيد كان اول خليفة يأمر بتقطيع سجادة الصلاة وإهداء قطعها الى ندمائه: «وكان هو اول من قطع المصليات»(٩٣).

وكان الرشيد يحدد المكافآت النقدية استنادا الى الدرجة المصنف فيها المطرب وجودة ما يقدمه. ونجد مثلا انه في حفلة واحدة معينة امر لاسحق الموصلي بألف دينار بينما امر لابن جامع بألف وخمسمائة دينار ولمغن ثالث من درجة اوطأ بخمسمائة دينار بينما امر لمغن آخر، لم يستحسن كلمات القطعة التي الفها، بثلاثين جلدة – «... فطرب وشرب وامر له بألف وخمسمائة دينار... ثم تبعه فلان فغنى... فاستحسنه وشرب عليه وامر له بخمسمائة دينار، ثم غنى علوية... فدعاه الرشيد وقال له: يا عاض بظر امه.. اتغني في مدح المرد وذم الشيب وستارتي منصوبة وقد شبت وكأنك تعرض بي... ثم دعا مسرورا فامره ان يأخذ بيده فيضربه ثلاثين درة ويخرجه من مجلسه ففعل...»(٩٤). ان تصنيف هارون الرشيد للمطربين ترتب عليه تنظيم جديد لهم. فقبل هذا كان لكل منهم الخيار في التنازل عن جزء من مكافأته الى مغن آخر، فسمعنا مثلا ان ابراهيم الموصلي وابن جامع كانوا يبعثون دائما بجزء من مكافأتهم الى معلمهم القديم(٩٥)، بينما اصبح عليهم بعد هذا التنظيم ان يعطوا جزءا من هذه المكافات لا الى الموسيقيين الذين يصاحبوهم على الآلات فحسب بل ايضا الى المطربين الاقل منهم درجة الذين اشتركوا في السهرة. ويقضي عرف متبع ان لا يأخذ المطربون المصنفون في الدرجات العليا جزءا من مكافآت المطربين في درجات اقل بالاضافة الى ان هؤلاء لم يكونوا ليتجاسروا على عرض ذلك(٩٦). وحسب ما علمنا من المصادر فان الفرق في الرواتب كان كبيرا بين المطربين المصنفين في الدرجة الاولى وزملائهم في الدرجات الاخرى الى درجة بحيث ان هؤلاء كانوا مضطرين الى البحث عن اعمال اضافية خارجية اخرى، كمزاولة مهنة اخرى او اعطاء دروس في الموسيقى، بينما يتقاضى نجوم الموسيقى ما يكفي لان يعيشوا في مستوى لا يقل عن كبار موظفي الدولة. فابراهيم الموصلي مثلا، كان ينفق على المواد الغذائية والكماليات مبلغا يعادل ثلاثة اضعاف راتبه العالي(٩٧)، وكانت لديه دار كبيرة واسعة بالاضافة الى بستان، كما كان

يقوم بتدريب المغنين في داره في المدينة حيث يقيم معه فيها ما لا يقل عن ثلاثين منهم، وذكر ابنه اسحق انهم كانوا مرة ثمانين. وكانت مغنيات اصدقائه يدرسن على ايديه مجانا، وبعد التدريب يرسلهن اليهم محملات بالهدايا. وكانت قصور الموصليين وغيرهما من مطربي البلاط في ارقى حي في بغداد - الرصافة بالقرب من دور وقصور كبار موظفي الدولة[٩٨].

كل هذا يذكرنا بحياة الفنانين الرغيدة، غير اننا ينبغي ان لا ننس ان كبار هؤلاء الموسيقيين المقربين الى الخليفة كانوا معرضين الى ان يدفعوا غاليا ثمن التوصل الى حياة البذخ والغنى هذه، إذ بتعلقهم وارتباطهم الكامل بمشيئة الخليفة كانوا دائما مهددين - اذا بدرت منهم هفوة او زلة - ان ينالوا غضب الخليفة[٩٩]، وقياسا على ذلك فان كل سهرة تمر بسلام تعني اكثر من كونها ليلة مرت بهدوء او جزءا من ليلة سيمر بهدوء، إذ حتى ختام السهرة كانت تحدده المراسيم فكانت لكل خليفة اشارته الخاصة التي تعلن انتهاء السهرة، فهارون الرشيد اعتاد ان يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك» ليعلن للموسيقيين انتهاء السهرة[١٠٠]، وبما ان المغنين قد يكونوا مخمورين في هذه الساعة، فكانوا يتبعون القاعدة القائلة: «عندما ينهض الموسيقي عليه ان لاينسى ان يأخذ آلته معه»[١٠١].

... العود.



هوامش

(٥٢) قارن ابو جعفر محمد ابن جرير الطبرى (المتوفي ٩٢٣/٣١٠) تاريخ الرسل والملوك، اصدار J. De Goeje طبعة مصورة، ليدن ١٩٦٤ - ١٩٦٥ الجزء ٣ ص ٩٠٩.

(٥٣) نويباور، موسيقيو البلاط ص ٣١ - ٣٢.

(٥٤) نفس المصدر السابق ص ٣٣.

(٥٥) جاحظ، التاج، ص ٣٦.

(٥٦) نفس المصدر السابق ص ٤١.

(٥٧) نويباور، موسيقيو البلاط ص ٨٨ - ٨٩.

(٥٨) نفس المصدر السابق ص ٩٠.

(٥٩) نفس المصدر السابق ص ٨٩.

(٦٠) «فغنيت مائة صوت وزيادة في شعر ذي الرمة فكان إذا سمع منها صوتا طرب وزاد طربه ووصلني فأجزل ولم ينتفع به احد منهم غيري، فأخذت منه والله بها الف درهم والف الف درهم». الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٣٩.

(٦١) نفس المصدر الجزء ٥ ص ٢٣٩، قارن الجزء ٥ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ و ٢٣٩ - ٢٤٠، الجزء ٨ ص ٣٦١ و ٣٦٢.

(٦٢) نويباور ، موسيقو البلاط ص ٤٥ .
(٦٣) نفس المصدر السابق ص ٤١ .
(٦٤) قارن Henry George Farmer, The Song Captions In The Kitabal-aghani Al-Kabir. Transactions Of The Glasgow Univ. Orient. Sa. XV (1955) 1-10.
(٦٥) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٣٧٥ - ٢٧٥ ، قارن نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٢٨ - ٣٩ .
(٦٦) نويباور ، موسيقيو البلاط ، ص ١٩٢ .
(٧٦) لا يشير اليه كتاب الاغاني .
(٦٨) مؤلفات الكندي الموسيقية ، اصدار زكريا يوسف ، بغداد ، مطبعة شفيق ١٩٦٢ ص ٩٧ - ٩٨ .
(٦٩) «كنت اضرب على ابراهيم ابن المهدي صوتا ذكره فغناه على اربع طبقات ...» الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ١٠٠ - ١٠١ .
(٧٠) «فاجمع جماعة المغنين ... فعددت خمسين مرة قد اعاد فيها عليهم وهو يظنون انهم قد اخذوه ولم يكونوا اخذوه ...» المصدر السابق الجزء ٥ ص ٣١٥ - ٣١٦ و ٣٦٢ و ٤١٧ - ٤١٨ .
(٧١) نفس المصدر السابق الجزء ٥ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٧٢) نويباور ، موسيقيو البلاط ، ص ٧٢ و ٧٥ .
(٧٣) هاوي الفنون ، الحلقة ٧٠ ب .
(٧٤) جاحظ، التاج ص ٣٧ .
(٧٥) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٧٢ - ٧٤ .
(٧٦) نفس المصدر السابق ص ٧٦ .
(٧٧) الاغاني/برنوف الجزء ٢١ ص ١٦١ .
(٧٨) الاغاني ٣ الجزء ١٣ ص ١٤٧ .
(٧٩) جاحظ، التاج ص ٣٦ ، الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ١٨٤ - ١٨٥ ، الجزء ٦ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، الاغاني/برنوف الجزء ٢١ ص ١٤٩ - ١٥٠ .
(٨٠) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٩٢ .
(٨١) نفس المصدر السابق ص ٣٧ .
(٨٢) قصص الف ليلة وليلة . الطبعة الالمانية الكاملة في ستة اجزاء . ترجمت لاول مرة عن طبعة كلكتا العربية لسنة ١٨٣٩ ، من قبل انولتمان Enno Litmann, Inselverlag 1953, IV 645f.
(٨٣) نويباور ، موسيقيو البلاط ، ص ٣٩ و ٧٦ .
(٨٤) نفس المصدر السابق ص ٩٠ .
(٨٥) نفس المصدر السابق ص ٤٠ .
(٨٦) الاغاني ٣ الجزء ١٠ ص ١٢١ .
(٨٧) نفس المصدر السابق الجزء . ص ١٢٢ .
(٨٨) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٩٣ ، قارن ايضا ص ٤٥ .
(٨٩) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ٩٥ .
(٩٠) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٠٣ .
(٩١) الاغاني ١ الجزء ١٧ ص ١٢٤ .
(٩٣) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ٢٢٤ .
(٩٤) نفس المصدر السابق ، الجزء ٥ ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، الجزء ١١ ص ٣٦٠ .
(٩٥) نفس المصدر السابق ، الجزء ٦ ص ١٧٥ .
(٩٦) جاحظ، التاج ص ٣٩ .
(٩٧) الاغاني ٣ الجزء ٥ ص ١٦٤ .
(٩٨) نويباور ، موسيقيو البلاط ص ١٠٦ - ١٠٨ .
(٩٩) نفس المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١ .
(١٠٠) جاحظ، التاج ص ١١٩ .
(١٠١) هاوي الفنون ، الحلقة ٧٠ ب .




غيلين
أغرب وأخطر جاسوس
في القرن العشرين
الحلقة الثانية
ترجمة:
تاريخ العرب والعالم

■ ان اخطر جاسوس في القرن العشرين هو بلا شك «راينهارد غيلين» الرجل الخفي الذي ظل يقفز بدهائه، وسعة حيلته، وجلده الذي قل ان يكون له ضريب، من ضابط صغير نكرة في الجيش الهتلري الى اكبر المناصب العسكرية. حتى انتهى به الامر الى ان اصبح مديرا عاما لمخابرات هتلر التي كانت تقف بالمرصاد للحلفاء ابان الحرب العالمية الثانية.

نشأة غيلين

ولد راينهارد غيلين يوم ٣١ نيسان – ابريل من عام ١٩٠٢ في مدينة «ايرفورت» البروسية في اقليم «ثورنجيا». وكانت اسرته تنتمي إلى الطبقة فوق المتوسطة التي كانت تمد حكومة الامبراطور بالموظفين، ومديري المصانع، والمدرسين، وضباط الجيش.

في ذلك الوقت كان ابوه بنو فيلكس فالتر غيلين ضابط مدفعية في اللواء الاول بالجيش. وكان اجداده جميعاً من العسكريين النظاميين، وقد اشترك احدهم بجدارة في حرب ١٨٧٠ – ١٨٧١، وخاض المعارك ببراعة وجراة تحت إمرة الامير البرت ولي العهد، واشترك في معركة «سيدان» التي انتهت بأسر نابليون الثالث، وسقوط الامبراطورية الفرنسية الثانية.

وكانت كاترين مارغريت – ام راينهارد – من اسرة بروسية محاربة شعارها لا تستسلم ابداً».

وكان اخوه الاصغر فالتر قد ولد في لايبتسش عام ١٩٠٣. وحرص والدهما على ان يغرس في قلبيهما حب بسمارك واجلاله، واحترام مولتكه والاشادة بمواهبه، بوصفهما من اعظم الرجال الذين انجبتهم المانيا القيصرية.

كذلك اهتم الاب بأن يعمر قلبا ولديه بحب الوطن، ومخافة الله، والاهتمام بالحفاظ على النظام الاجتماعي، والحرص على اداء الواجب نحو الوطن بالاخلاص في الخدمة العسكرية.

وكان راينهارد غيلين ذا ذهن تحليلي، شديد الميل إلى الحساب والجبر والهندسة، وظل طوال حياته مغرماً بالاحصاءات، وكان يلتهم، ويهضم في غير مشقة كل ما يصادفه من مؤلفات في الاقتصاد والتاريخ والجغرافيا، ويعكف على قراءة كل ما يقع تحت يده من كتب الادب الالماني الكلاسيكي، وكان من المتفوقين في اللغات ولا سيما اللغتين اللاتينية والفرنسية، واهتم بدراسة اللغة البولندية.

وكان سريع الفهم والبديهة، قوى الذاكرة، بارعاً في كتابة موضوعات الانشاء طوال دراسته الثانوية.

وكان لهذا كله اثره في كل ما اعده من تقارير ومن مذكرات عندما عين، فيما بعد، موظفاً بادارة المخابرات التي كانت ملحقة بمقر قيادة هتلر، وحين عمل، بعد سقوط المانيا وهزيمتها المنكرة في الحرب العالمية الثانية، مع ادارة المخابرات المركزية الاميركية، فقد كانت مذكراته وتقاريره تتميز بالذكاء والوضوح وجمال الاسلوب السلس المنطقي.

ولكنه كان يعاني مركب نقص اثر في نفسيته بعمق، وذلك من جراء قصر نظره، واذنيه الكبيرتين، ووجهه الذي يخلو من سمات الرقة والسماحة، وشعره الاشعث الذي يصعب تصفيفه.

وكان، بسبب مركب النقص الذي تملكه واستبد به شديد الخجل، ميالاً إلى العزلة، لا يصادق إلا اقل عدد من الناس، وكان اترابه في المدرسة يعاملونه بسخرية من جراء عيوبه الخلقية، ومن ثم كان يرفض ان يرافقهم في الرحلات، او يشترك معهم في لهوهم، او مبارياتهم الرياضية، او مغامراتهم الصبيانية.

تلك هي الاسباب والعوامل النفسية التي جعلت هذا الرجل الذي جعل منه مركب نقصه داهية، يجد لذة لا تعدلها لذة في التقوقع، والعمل على انفراد، والحرص على التخفي والتنكر، وبذل كل ما في وسعه من جهد للسيطرة على رؤسائه الذين كانوا يتصورون خطأ بطبيعة الحال انه خادمهم المخلص المطيع.



من الملصقات الألمانية التي تمثّل البلشفي كوحش وتعلن: منقذ المانيا هو هتلر!

الالتحاق بالجيش لا دراسة القانون:

وكان يتحلى بكل الصفات التي يمكن ان تجعل منه باحثاً جامعياً. وحين حصل على شهادة الثانوية العامة فكر في الالتحاق بالجامعة، وشجعه عمه ماركس على دراسة القانون، ولكن اباه كان له رأي آخر صمم عليه، وهو ان خير ما يمكن ان يفعله ابنه راينهارد هو ان يلتحق بالجيش، ويتباهى بارتداء الزي العسكري، كما فعل كل اجداده. وقد اصر الاب على رأيه رغم التمزق المشوب بالذل، الذي كان يعاني منه الشعب الالماني بسبب هزيمة المانيا في الحرب العالمية الاولى، وتجريدها من السلاح.

وقد اصر الاب على موقفه لاعتقاده ان الخدمة العسكرية هي خير رمز لبعث الامة الالمانية من جديد.

وهكذا لم ينقض اسبوعان على عيد ميلاده الثامن عشر حتى التحق في عشرين نيسان (ابريل) من عام ١٩٢٠ بالجيش الالماني الجديد «الرايخسفير» الذي كانت معاهدة فرساي قد نصت على الا يتجاوز عدد رجاله المائة الف وعلى الا تكون له هيئة اركان حرب، او يكون مزوداً بالدبابات او المدرعات او الطائرات، او الغواصات، او سفن حربية تزيد حمولتها على عشرة آلاف طن.

ولقد اسفرت هزيمة المانيا القيصرية في عام ١٩١٨ عن نتائج تختلف كل الاختلاف عن النتائج التي ترتبت على استسلامها بلا قيد او شرط بعد انهيار الرايخ الثالث في عام ١٩٤٥.

فبعد عقد الهدنة عندما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها، كانت وحدات ضباط الجيش الالماني لا تزال سليمة ونشطة، وآية ذلك ان الحبر الذي وقعت به معاهدة فرساي لم يكد يجف حتى شرع الجنرالات الالمان آنئذ في إعادة بناء الجيش وتنظيمه.

وكان الجندي راينهارد غيلين قد عين في وحدة للمدفعية بالجيش الالماني الجديد، على مقربة من حدود بولندا وتشيكوسلوفاكيا، إذ كان قد قرر ان يقتفي اثر والده فيصبح من رجال المدفعية مثله.

وبعد فترة من الزمن استطاع الحصول على اجازة قضاها مع افراد اسرة ابيه الذين كان معظمهم من اليمينيين، واتيحت له وقتئذ فرصة الاجتماع بعدد من رجال السياسة، واساتذة الجامعات، والكتاب، والضباط السابقين. وكانت احاديثهم تدور حول نقطة واحدة هي الخطر البلشفيكي، فقد كان اولئك الالمان المثقفون منزعجين اشد الانزعاج بسبب حصول الشيوعيين آنئذ على نحو مليوني صوت في الانتخابات النيابية التي جرت في المانيا خلال عام ١٩٢٥، وبسبب تعاظم قوة ستالين، واشتداد التجسس السوفياتي في الغرب. وكان الرأي عند اولئك الالمان المثقفين ان الواجب يقضي بمحاربة تلك الاخطار.

ولاحظ غيلين الشاب اثناء العطلة التي قضاها خارج المعسكر ان آراء اولئك الناس المثقفين الذين كان يحرص على الاشتراك في كل

اجتماع يعقدونه، تلقى ترحيباً بوجه عام، وان الحركة التي بداها الجنرال لورندورف وادولف هتلر تلاقي تأييداً من رجال السياسة والمثقفين بوجه عام. وان ثمة تياراً عارماً يتجه نحو هدف على اعظم جانب من الاهمية في نظر افراد الشعب، وهو تقوية الشعب الالماني. وتمكينه من استرداد كرامته التي اهدرت في الحرب، وجعله شعباً مرهوباً كما كان في الماضي.

الاقتناع بأن هتلر على حق

واخيراً اقتنع اولئك الساسة والمثقفون بأن هتلر كان على حق في دعوته إلى التوسع شرقاً كحل للكارثة الاقتصادية التي نكبت بها المانيا منذ هزيمتها في عام ١٩١٨.

وبدأ غيلين يؤمن ايماناً اعمى بدعوة هتلر. ويعتقد اعتقاداً جازماً ان للالمان رسالة اجتماعية واقتصادية تدفعهم إلى السيطرة على اوروبا الشرقية. ومن ثم طفق يقرأ بدقة وامعان كل ما يقع تحت يده من كتب عن الحكومة السوفياتية، والمزارع الجماعية، والتصنيع في الاتحاد السوفياتي، وتكوين الجيش السوفياتي الذي كان تروتسكي قد حوله من مجرد جماعات ثورية مبعثرة الى اقوى جيش في اوروبا.

ويلوح ان اهم شيء اثاراهتمام غيلين خلال تلك الفترة هو نشاط «الكومنترن» الذي كان يرمي إلى الدعوة لاشعال ثورة عالمية، وتشكيل «اللجنة الخاصة العليا لمكافحة اعداء الثورة البلشفية» في سنة ١٩١٧، وجهاز الاستخبارات الضخم التابع لها، وهو جهاز لم يعرف له مثيل في اي بلد في العالم خلال تلك الفترة.

اشتد اعجاب غيلين في ذلك الوقت بفيليكس دزيرشنسكي الارستقراطي البولندي، والبلشفي القديم الذي انشأ «لجان التحقيق الحمراء السوفياتية»، فأكب على التهام عشرات الكتب عن روسيا، وحرص على الاحتفاظ بكل قصاصة من صحيفة او مجلة المانية تحتوي على اية انباء عن نشاط منظمات التجسس السوفياتية.

وكان يروي لزملائه الضباط حكايات منوعة يستخلصها من مطالعاته دون ان يلقى منهم اي اهتمام بما يرويه لهم.

ولكن زملاءه اهتموا ايما اهتمام بقصة واحدة رواها لهم خلاصتها انه حدث ذات يوم ان وجه ستالين – وكان إذ ذاك سكرتيراً عاماً للجنة المركزية – إلى دزيرشنسكي سؤالاً هو: كم عدد الاشخاص الذين تشتبه «لجنة مناهضة اعداء الثورة» في اخلاصهم وولائهم، وتحتفظ بهم في المعتقلات. فأرسل إليه دزيرشنسكي مذكرة قال فيها ان عددهم ١٨٠٠، فأعاد إليه ستالين المذكرة بعد ان وضع علامة × على الهامش.

وفي الليلة التالية اعدم هؤلاء جميعاً بالرصاص وبعدها ابلغ دزيرشنسكي زعيمه ستالين ان الامر الذي اصدره قد نفذ على اتم وجه

وما ان تلقي ستالين نبأ الاعدام حتى طلب من سكرتيره ان يقول لدزيرشنسكي انه – اي ستالين يضع عادة علامة × على اية مذكرة بعد الاطلاع عليها دون ان يقصد بذلك شيئاً آخر وان دزيرشنسكي اخطأ الفهم لانه لم يدرك ان علامة × تدل على ان ستالين قرا المذكرة.

وكان غيلين شديد الاعجاب بمنشفسكي الذي سمع اسمه في عدة مناسبات، فقد تذكر انه كان في برلين قنصل سوفياتي بهذا الاسم ادار خلال فترة ما شبكة تجسس، وعلم انه كان من اخطر رجال المخابرات السوفياتية، وانه واسع الثقافة ويجيد إثنتي عشرة لغة منها. الصينية، واليابانية، والعربية والفارسية وكان منشفسكي فوق ذلك، شاعراً وذا موهبة حسابية ويهتم بعلم الفلك، وعلم الطبيعة.

اعجب غيلين بذلك الرجل المثقف المتعدد الجوانب الذي كان يدير اخطر جهاز للمخابرات في العالم، ويجد، في الوقت نفسه، متسعاً من الوقت لقرض الشعر. الرجل الذي كانت له سيطرة لا حد لها على الناس، ومع ذلك يهتم بالدراسات الانسانية، ويعني بدراسة نجوم وكواكب في الوقت الذي يدير فيه شبكات تجسس ضخمة على اوسع نطاق ممكن.

وكان عمله في المدفعية يحتم عليه ان يتدرب على ركوب الجياد، وكان من اثر ذلك ان



الرئيس هندنبرغ وهتلر سنة ١٩٣٤

استبدت به هواية الفروسية، وسرعان ما اصبح من ابطالها بعد ان بذل جهداً جماً في التدريب رغبة منه في تعويض مركب النقص الذي كان يعانيه في مستهل شبابه من جراء ضآلة جسمه، وصحته الهشة. وطفق يمارس هذه الرياضة في اوقات الفراغ، غير ان تلك الهواية التي كان يجد في ممارستها لذة لا تعدلها لذة، لم تمنعه من الاستمرار في دراسة شؤون اوروبا الشرقية.

ضابط في معهد سري!

وفي سنة ١٩٣٠ إنتخب الفيلد مارشال فون هندنبورغ رئيساً للدولة، وفي غضون تلك السنة عين غيلين ضابطاً بمدرسة الفروسية في مدينة هانوفر. ومع ان تلك المدرسة كانت ذات شهرة واسعة في تخريج الفرسان الشجعان، فقد كانت في الواقع معهداً سرياً لتدريب الضباط المتازين الاذكياء على العمل في هيئة اركان الحرب الجديدة التي لم يكن لها - رسمياً - اي وجود طبقاً لمعاهدة فرساي.

وابدى غيلين من الذكاء والبراعة في عمله الجديد ما جعل مدير المعهد يرشحه لان يكون عضواً في هيئة اركان الحرب السرية الجديدة، وحدث ان نقل إلى منصب كبير في برلين خلال الفترة التي كان هتلر يعد فيها العدة للاستيلاء على السلطة. وهكذا استطاع غيلين ان يتمتع عن كثب، بالاحداث التي وقعت خلال الثلاثينات في برلين.

وفي مستهل شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٣١ تزوج غيلين شابة في السابعة والعشرين من اسرة معظم افرادها من النبلاء الاثرياء والعسكريين ذوى النفوذ الواسع.

واستطاع ان يتطلع إلى المستقبل بتفاؤل واستبشار بعد ان ناسب تلك الاسرة الثرية ذات النفوذ، ولم يلبث ان عين. نتيجة لذلك، ضابطاً في هيئة اركان الحرب.

وراى ان يضع رسالة ليدخل بها امتحان الضباط العظام، وكانت رسالته عن واجبات ومواقف عضو البرلمان، ومما قاله فيها ان واجبات السياسي تحتم عليه ان يخلص للدولة اولاً وقبل كل شيء وان واجب النائب ان يوجه اهتمامه إلى الدولة قبل ان يهتم بدائرته الانتخابية.

وقد اخذ هتلر بوجهة النظر هذه بعد ان اطلع على رسالة غيلين التي نال بها شهادة اركان الحرب بامتياز وجدارة ومن ثم انشأ دولة ذات حزب واحد.

وقد رحبت اسرة غيلين بحكومة هتلر، كما رحب بها كل اصدقائها. وبعد انقضاء اربعة اسابيع على تولى هتلر الحكم حدث حريق «الرايخستاغ»، وتوجهت اصابع الاتهام إلى الشيوعيين دون ان يعرف الناس ان غورنغ، الذي تولى رئاسة الرايخستاج خلال تلك الفترة، هو الذي دبر عملية الحريق.

واستقر رأي غيلين بعد الاحداث الدموية التي وقعت عقب حريق البرلمان، على تأييد هتلر تأييداً لاحد له، فقد وجد فيه زعيماً قادراً على النيل بشدة وعنف من الشيوعيين، وعلى توسيع اراضي الدولة الالمانية الجديدة لتشمل كل بلاد اوروبا الشرقية، وهي امور كان غيلين يحلم بها منذ شبابه، ولهذا رفض التعاون مع المتآمرين ضد هتلر في ذلك الوقت، الذين كانوا يعملون على التخلص منه بأي ثمن، وظل مخلصاً له حتى النهاية.

واستطاع غيلين بطموحه واجتهاده ومثابرته، ان يصل خلال بضع سنوات، إلى ارفع المناصب، بل إلى منصب مدير مخابرات هتلر ابان الحرب، وكانت اخطر مهمة اسندت إليه هي «التصدي بكل الوسائل

المستطاعة لروسيا الشيوعية، وجواسيسها».

وحرص غيلين آنئذ على ان يتخصص في دراسة كل شؤون الاتحاد السوفياتي؛ فالتحق بالاكاديمية الحربية وتخرج منها بامتياز بفضل اجتهاده في الدرس والتحصيل، واتضح لاساتذته انه كان اوسع منهم علماً ودراية بالماركسية، والنظام الشيوعي، والكومنترن، والجيش الاحمر، ونظام الاستخبارات السوفياتي.

ويقول زملاؤه في الاكاديمية انه كان جاداً جداً في الدرس والتحصيل، ويحتفظ في غرفته بأكوام من الكتب عن الاتحاد السوفياتي بينما كان معظم اصدقائه وزملائه يتركون انفسهم نهباً للهو والمرح مع الفتيات الجميلات.

وفي اثناء الحرب العالمية الثانية ذاع صيت غيلين في دوائر الحلفاء، وعرف قواد الجيش البريطاني الشيء الكثير عنه. وفي هذا يقول القائد البريطاني الشهير الجنرال باغيت: «لقد ايقنت، بعد ان التقيت بغيلين في إحدى المناسبات انه زئبقي الشخصية، وعلى جانب كبير من الذكاء وسرعة البديهة، وقوة الذاكرة والقدرة الخارقة على تحليل اعقد المواقف بوضوح مذهل. وادركت بعد ان جادلته طويلاً اننا لا نعرف إلا النذر اليسير عن الاتحاد السوفياتي وان لديه ثروة من المعلومات والبيانات الدقيقة عن تلك البلاد».

وفي سنة ١٩٣٦ عين غيلين في منصب هام بادارة العمليات التابعة لهيئة اركان حرب هتلر، وكان يحترم رئيسه الفيلد مارشال فون مانشتاين، بل يعتبره مثله الاعلى في كل شيء. وفي تلك الاثناء كان مانشتاين يضع الخطط لضم النمسا إلى الرايخ (تم ذلك في شهر آذار - مارس - من عام ١٩٣٨) وغزو تشيكوسلوفاكيا في العام التالي.

وكان من حسن حظ غيلين ان سنحت له الفرصة لمعاونة المارشال مانشتاين في وضع تلك الخطط، ومن ثم اصبح احد اعضاء لجنة الخطط الحربية التي كان يرئسها الجنرال رونشتد القائد الالماني الذي ذاع صيته إبان الحرب العالمية الثانية، والتي كانت تخطط وقتئذ للهجوم على بولندا. وبعد بضعة اشهر عين



المارشال غورنغ

مانشتاين قائداً للفرقة الثامنة عشرة في سيليزيا، وهي الفرقة التي كان قد وقع عليها الاختيار للانقضاض على بولندا في شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٣٩.

في ذلك الوقت نقل غيلين إلى «ليغنتي» الواقعة على الحدود الالمانية البولندية، على اعتبار انه من ضباط كتيبة المدفعية الثامنة عشرة. لكن مهمته الحقيقية كانت بعيدة كل البعد عن المدفعية، إذ كان عليه في الواقع ان يقوم على الحدود ببعض عمليات الاستطلاع والتجسس.

هتلر يستعين بخبرة غيلين

وفي ليلة الثاني من ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩ استقل الميجور غيلين وكان قد عين ضابط مخابرات فرقته المشاة رقم ٢١٣ - استقل سيارة مدرعة من سيليزيا، واقتحم بها الحدود إلى بولندا، مع اولى الوحدات الالمانية



التي غزت الاراضي البولندية.

بيد ان مهمته في الخطوط الامامية انتهت بعد ثلاثة وثلاثين يوماً. ففي العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) استدعي إلى مقر قيادة هتلر العليا، إذ كان قد تقرر الاستعانة بخبرته ومعلوماته الواسعة في إدارة العمليات، ذلك ان الاعتقاد كان سائداً في مقر القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية ان العمليات الحربية ستزداد عدداً واتساعاً بعد ان اعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على المانيا، ومن ثم كانت ادارة العمليات في حاجة إلى رجل ذكي، ذى نظرة شاملة من طراز غيلين.

وقد قررت القيادة الالمانية العليا إذ ذاك تكريمه والاعتراف بالخدمات العظيمة التي اداها خلال الفترة التي قضاها في منطقة الحدود البولندية الالمانية، فأقنعت هتلر بالموافقة على منحه وسام «الصليب الحديدي» من الدرجة الثانية.

ويلوح ان هتلر اعجب اشد الاعجاب ببراعة غيلين إذ كان ينتقل من منصب رفيع إلى منصب ارفع بسرعة مذهلة خلال العامين الاولين من الحرب العالمية الثانية.

وكانت ترقيته إلى منصب مدير التحصينات تحت امرة الجنرال الفريد جاكوب قد تمت بتوصية من المارشال مانشتاين. وقد اتاح له هذا المنصب الرفيع فرصة الالتقاء برجال يشغلون ارفع المناصب في القيادة الالمانية العليا.

ولو ان رجلاً آخر شغل ذلك المنصب الرفيع لقضى بقية حياته قانعاً بالعمل في مكتب انيق، شأنه في ذلك شأن أي ضابط كبير لا يعرف الطموح، فيحصل على العلاوة السنوية بانتظام، ويرضى برتبة كولونيل ممتاز يتقاضى مرتباً كبيراً.

مواهب غير عادية

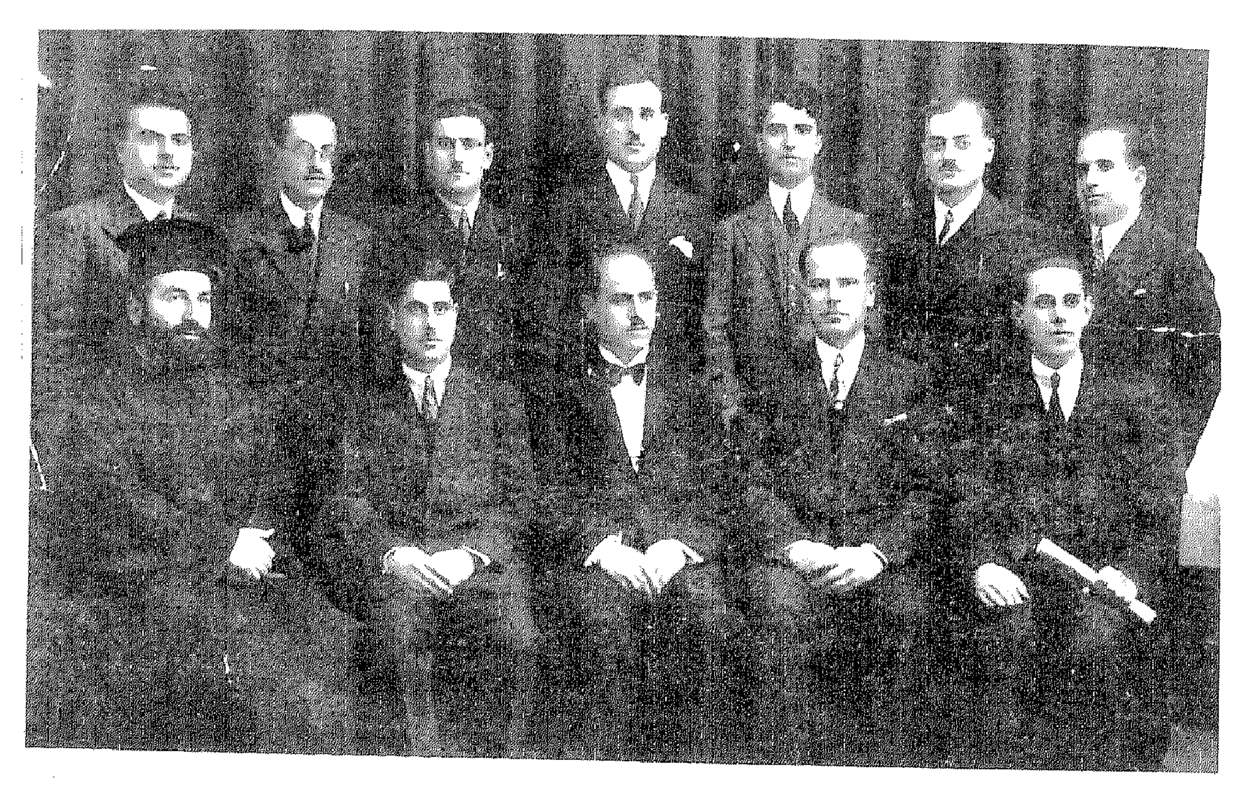
بيد ان غيلين لم يكن كأي رجل آخر، فقد اتاح له منصبه الهام في ادارة التحصينات الفرصة لاظهار مواهبه غير العادية التي ظفرت بأعجاب لا حد له من جانب كبار الضباط في القيادة العليا الذين كانوا يذهلون لأصراره على معرفة ادق التفاصيل عن كل مشكلة كانت تواجههم، ومثابرته غير المألوفة في دراسة المشاكل المعقدة الملتوية وتحليلها، رغبة منه في الاهتداء إلى انسب الحلول لها

■

جمعيّة التضامن الأدبي

من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٣٣

جان سرور



المجلس الاخير للجمعية يتوسطه الرئيس نسيم ايوب ويحيط به من الشمال الشماس صويتي، نجيب الصايغ، اديب قازان جان سرور والواقفون من الشمال وديع فرح عيسى مخايل سابا، معضاد معضاد، راغب حمادة، ابراهيم حداد، عبد الرحمن عبد الملك، فريد كوزما.

في اوائل عهد الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وفي العام ١٩٢٣ بالذات التقى عدد من الشباب اللبناني الفتيّ والمفكر، وقد هالهم ما وصل اليه بلدهم من جهل وتعصب ديني وانحلال خلقي وخاصة تعامي اللبنانيين عما يدبَّر لهم من شراك بقصد ترسيخ استعمار بلدهم، في الوقت الذي كانت مهمة الدولة المنتدبة الاخذ بيد الدولة المنتدب عليها والتدرج بها نحو الاستقلال التام الناجز بحسب شرعة عصبة الامم في ذلك الحين.

وبعد ان اعملوا الفكر وتدارسوا ما يتوجب عليهم القيام به قرروا ان لا يقفوا مكتوفي الايدي تجاه ما يحصل، وعزموا على انشاء حزب سياسي واجتماعي يكون واسطتهم في ايقاظ الشعب من غفلته وبث الروح الوطنية بين الناس واعدادهم لطلب الحرية والاستقلال.

جان سرور

كيف ولدت فكرة انشاء الجمعية:

ولما كان اصحابنا هؤلاء ما زالوا طريي العود وتنقصهم الخبرة لانشاء حزب كهذا رأوا ان يستشيروا المحامي الشيخ ابراهيم المنذر وهو النائب والاديب الكبير والمعروف بوطنيته الصادقة فنصحهم بصرف النظر عن تأسيس حزب لان السلطة سترفض طلبهم ولا تتخذه قطعا، واشار عليهم بالعمل وراء ستار العمل الادبي حيث يمكن بث الافكار الحرة مغلفة بغلاف النشاط الادبي. فاقتنع الشباب بالرأي الحكيم واتفقوا على تقديم طلب بانشاء جمعية دعوها «جمعية التضامن الادبي».

المعاناة للحصول على الاجازة:

غير ان طلبهم بالرغم مما كان يوحي به من سلامة قصد لم يستجب له الا بعد معاناة ومراجعات دامت اكثر من سنة الى ان صدر اخيرا في ٢ آب ١٩٢٤ بموافقة الجنرال فاندبرغ حاكم لبنان في ذلك الحين فتلقى الاعضاء الخبر بفرحة عارمة، وشرعوا في عقد الاجتماعات المتوالية في منزل كاتب هذه السطور (جان سرور) وأخذت من ثم، الجمعية تنمو شيئا فشيئا. غير ان المال كان ينقصها لانشاء ناد لها والقيام بالحفلات والمحاضرات العامة للظهور امام الناس بالمظهر اللائق. ودام الامر على هذا الشكل الى العام ١٩٢٩ حين اقبل على الانتماء اليها عدد وافر من خيرة الشباب اللبناني الذين زاد عددهم على المئة، اذكر منهم الرفاق المحامون معضاد معضاد، نسيم ايوب، اسعد عبد النور، وديع فرح، والقضاة رؤساء المحاكم في ما بعد اديب عفيش، محمود نعمان، ارسلان حاتم، نجيب الصائغ رئيس حزب النداء القومي في ما بعد نصري المعلوف وزير الدفاع، فريد كوزما وزير التربية الوطنية. والاطباء شريف حمادة، الياس حبيب، عارف الريِّس، متري فرح والادباء زاهية ايوب، ابراهيم حداد، الياس خوري، عيسى مخايل سابا، عبد الحفيظ سلطاني، محمد طبارة، حسن فروخ، فائق خوري، مختار التنير، محمد كزما، حبيب ابو شقرا، منير الحسامي، عزيز توما، صلاح الاسير والتجار فؤاد عقل، حمدي طرابلسي، جبران عشي، راغب حداد، عبد الرحمن عبد الملك، اديب قازان واخيرا الشماس ملاتيوس صويتي وهو اليوم مطران الطائفة الارثوذكسية في الارجنتين وكان الشماس الصويتي اكثر خطباء الجمعية اثارة واشدهم حماسة ووطنية ولكن باسلوب رجل الدين الرصين.

انشاء نادي الجمعية:

والجدير بالذكر ان بعض الاعضاء، مالوا في وقت من الاوقات، الى احياء ندوة ضمن الجمعية تعنى بالادب والشعر بنوع خاص غير ان الباعث الاساسي لانشاء الجمعية ظل الهدف الاول، وقد حصل هذا بعد ان صار للجمعية نادٍ لائق بها وكانت تستقبل فيه جماهير الشباب ورجال السياسة والادب وتلقى فيه الخطب والمحاضرات وتدور المناقشات في شتّى الشؤون، بالاضافة الى ذلك كانت الجمعية تحيي حفلاتها الكبرى في صالة الكران تياتر، وكانت في اوج مجدها، وكانت هذه الحفلات لها طابع المهرجانات يخطب فيها الى جانب الاعضاء ادباء ومصلحون وشعراء كبار امثال ابراهيم المنذر وامين الريحاني وميخائيل نعيمة وبشارة الخوري الاخطل الصغير ومصطفى الغلاييني وسابا زريق وانيس الخوري المقدسي وغيرهم وغيرهم من كبار رجالات البلاد وادباء لبنان.

وكانت الجمعية تتوخى بث الفكرة الوطنية بين الناس ودفعهم للتحرر من القيود والعادات التي تشدهم الى الوراء.

الحفلة الاخيرة:

وكانت هذه الحفلات تترك وراءها اصداء استحسان يطول ذكرها ويستمر الحديث عنها اياما. واستمر الحال كذلك حتى كانت الحفلة الاخيرة التي القى فيها امين الريحاني خطابه المشهور «بين عهدين» الذي اتينا على ذكره في مقال سابق في هذه المجلة الغراء والذي تسبب في حل الجمعية وابعاد الريحاني عن لبنان.

نشاطات الجمعية:

ومن الاعمال التي قامت بها الجمعية تبنيها لحركة المقاطعة لشركة الجر والتنوير الاجنبية، عام ١٩٣١ بعد ان كانت الحكومة بمعونة رئيس المجلس النيابي قد توصلت الى شق اللجنة التي كانت تتولى حركة المقاطعة وتعلن وقف المقاطعة، فإذا بالجمعية تتدارك على الفور الامر وتجتذب الفئة المعارضة لوقف المقاطعة وتعلن ولادة لجنة شعبية جديدة اخذت على عاتقها الاستمرار حتى النهاية. ودامت المقاطعة ستة اشهر اخرى تخللها اعمال عنف اوجبت القيام باعتقالات واحالة الى المجلس العدلي بتهمة العمل ضد سلامة الدولة ونال عدد وافر من اعضاء الجمعية نصيبهم من الاضطهاد والتعسف، لان الانتداب كان يرى في كل تحرك وطني واقتصادي مناهضة وزعزعة لكيانه.

اما في حقل الاقتصاد والصناعة الوطنية فقد كان للجمعية دور في محاربة البضائع الاجنبية التي تغزو البلد، وكانت تدعو الى تشجيع الصناعة الوطنية برغم قلة انواعها في ذلك الوقت، والاستغناء عن البضائع الاجنبية المستوردة من الخارج. واذكر اننا اقمنا احتفالا في احد الايام ارتدينا فيها ما تيسر من ملابس كانت في معظمها حريرية وذلك بقصد تعريف الجمهور على صناعة بلدوخطبنا مشددين على ان الاستقلال الاقتصادي هو الاساس للاستقلال السياسي.

واما لجهة العلم ومكافحة الامية التي كانت متفشية في ذلك الوقت فقد قامت الجمعية بنشاط ملحوظ، اذ عمدت الى احياء مباريات شعرية بين طلاب المدارس في الخطابة والقاء الشعر، كما قدمت مساعدات لاولاد فقراء، وافتتحت مدرسة ليلية في ناديها للاميين كان الاعضاء يتناوبون فيه على اعطاء الدروس لهم بالمجان.

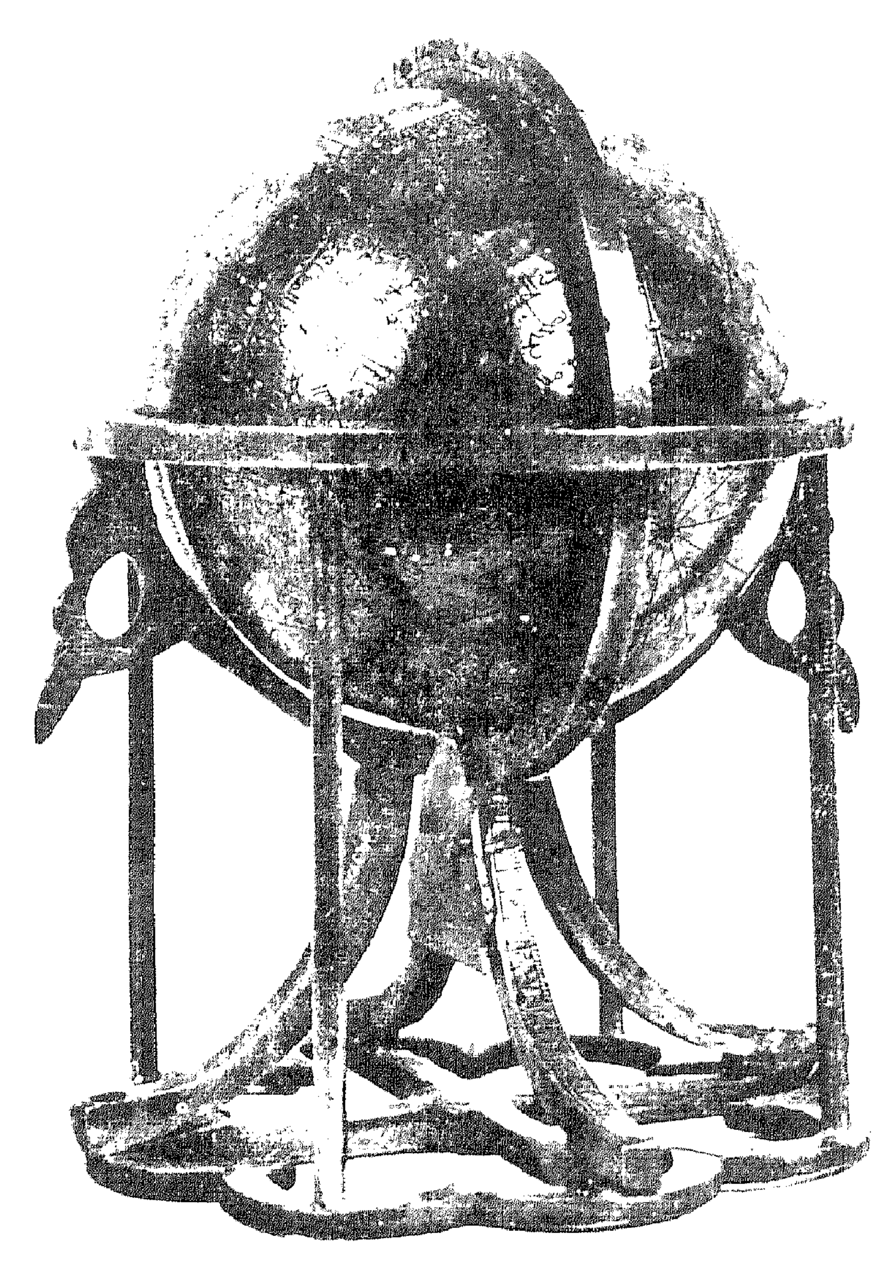
الانضمام الى حزب الاستقلال الجمهوري:

وعندما حلت الحكومة الجمعية اثر خطاب الريحاني اخذ الاعضاء يفكرون في ما يجب ان يفعلوه لانهم لم يتعودوا الانطواء على انفسهم. وبعد مشاورات وابحاث اجروها مع اركان حزب الاستقلال الجمهوري الذي كان قد توصل حديثا الى الحصول على اجازة عمل وتم الاتفاق على انضمام اعضاء الجمعية المنحلة الى الحزب وان يستقيل اعضاء مجلس الحزب ليصار الى انتخاب مجلس جديد يضم بالتساوي اعضاء من الهيئتين وتم العمل بهذا الاتفاق مدة من الزمن لكن الحزب لم يلبث ان حُلّ هو الآخر سنة ١٩٣٨ بتهمة القيام باعمال مخالفة للدستور. وهكذا كان الحال في عهد الانتداب الذي كاد ان يتحول الى استعمار او مزرعة يشغلها بعض الموظفين.

●

مؤلفات أهل اليمن في علم الفلك

عبد الله الحبشي



نشرنا في العدد السابق (٢٢) محاضرة الدكتور دافيد كنج بعنوان: حول تاريخ الفلك في العصر الوسيط في اليمن. وفي هذا العدد ننشر تعقيب الاستاذ عبد الله الحبشي عليها.



كان الاتجاه السائد الذي شمل المكتبة اليمنية عبر عصورها الاسلامية هو الطابع الفقهي الديني الذي اتى بضرورات اجتماعية ملحة. والذين خرجوا عن هذا المنطلق هم فئة قليلة نبغوا فيما بعد القرن السابع وكانت لهم اهتمامات في علوم مختلفة كالفلسفة والتاريخ والادب والعلوم التجريبية... كالطب والهندسة والحساب والفلك والزراعة وغيرها. إلا ان هذا القسم هو اضعف نصيباً من المؤلفات مما حظيت به سائر فروع العلوم الاخرى وذلك لاقتناع اهل اليمن التام بتلك المنجزات العلمية الرائعة التي حققتها الحضارة الاسلامية في بغداد والشام والاندلس، وكل ما اتى به اهل اليمن في هذا المضمار لا يعدو تكملة بسيطة ليست لها قيمة علمية قصوى. وباستثناء اعمال الفلكي اليمني «ابو العقول» فإن بقية الذين نبغوا في علم الفلك من اهله ليسوا سوى ناقلين وشارحين.

واراني اجد العمل في هذا الفرع من فروع الثقافة اليمنية في عصرها الاسلامي نوعاً من التحصيل الذي لا يجدي كثيراً. لو لا اني وجدت مستشرقاً امريكياً هو الدكتور دافيد كنج ينبش الموضوع من اصوله ويقوم بدراسة مختصرة تعتبر الاولى من نوعها حول هذا الموضوع عرض فيها لستة من علماء الفلك في اليمن هم اصحاب الارقام ٥ و ٨ و ١٠ و ١٥ و ١٦ من عملي هذا.

ومع ما في دراسة الاستاذ كنج «التي هي عبارة عن محاضرة القاها في جامعة صنعاء» من جدة وابتكار الا اني وجدت الاستاذ لم يستكمل كل اعلام الفلك اليمنيين.

هذا مما دفعني الى استكمال دراسة وضع وتصنيف شامل لكل من كتب في علم الفلك سواء كان عمله من النوع الحسابي او من نوع الفولكلور الفلكي - كما يقول الاستاذ كنج. وقد استقيت هذا العمل اساساً من مؤلفي الكبير «تاريخ التراث اليمني»(*)، الذي نشرت منه بعض الحلقات.

ولتكن محاولتي هذه نبراسا يقتبس منه كل من يريد التوسع في علم الفلك لعله يخرج بأسماء جدد غير الذين ذكرتهم هنا:

١ - لسان اليمن ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني:

ولد في صنعاء سنة ٢٨٠هـ من فطاحلة علماء اليمن. حقق في سائر العلوم. رحل إلى مكة ويقال انه سار إلى العراق واجتمع بعلماء وكان عارفاً بخط المسند توفي بعد سنة ٣٦٠هـ كما حققه العلامة حمد الجاسر.

مصادر ترجمته: القاضي صاعد. طبقات الامم ص ٥٨ ياقوت معجم البلدان ج ٧ ص ٣٢٠ القفطي: تاريخ الحكماء ص ١٦٣ الفيروزابادي: البلغة في تراجم ائمة اللغة ص ٧٠ الخزرجي طراز اعلام الزمن مخطوط. ابن ابي الرجال مطلع البدور مخطوط وغيرها.

- له الزيج «والزيج عبارة عن جداول توضع للايام والشهور» يقول كنج: والهمداني اول عالم فلكي يمني ولا نعرف بوجود اي فلكي يمني آخر يكون قد ظهر فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين، على ان الزيج الذي وضعه الهمداني لم يعد موجوداً الآن. ولعل اقدم من اشار إليه هو القفطي في تاريخ الحكماء ص ١١٢.. وقد عاش القفطي في القرن السابع.

٢ - البحر النعامي:

من آل ذي نعامة من حمير سكن صنعاء وحقق المؤرخ المعاصر محمد بن علي الاكوع حياته بانه عاش في القرن الخامس: انظر هامش صفة جزيرة العرب ص ١٥٥.

- له قصيدة يائية في ذكر الشهور والكروم وما يصلح لفصول السنة منها نسخة مخطوطة سنة ٦٢٦هـ بمكتبة العلامة مشرف بن علي في تعز.

٣ - نشوان بن سعيد بن سلامة الحميري:

من العلماء ذوي المعارف المتعددة اهتم بالدراسات التاريخية. يقول ياقوت انه تملك واستولى على عدة قلاع. توفي سنة ٥٧٣هـ.

مصادر ترجمته: عمارة المفيد ٣٢٠.

ياقوت: معجم الادباء ج ١٩ ص ٢١٧. القفطي: انباه الرواة: ج ٣ ص ٣٤٢ الفيروزابادي: البلغة ص ٢٧٣، ابن ابي الرجال: مطلع البدور «استطراد» يحيى بن الحسين طبقات الزيدية. الزحيف: شرح البسامة سترسيتن في المنتقي من اعمال المستشرقين ص ٧٥ و ٨٣ وغيرهما..

– لـه ارجوزة في معرفة الشهـور الرومية – منه نسخة مخطوطة في ٥ ورقات بمكتبة الامبروزيانا بايطاليا برقم ١٣.

٤ – ابو اسحاق ابراهيم
ابن علي بن محمد بن منصور بن المبردع الاصبحي الجندي:

من علماء اليمن برع في النحو والحساب والفلك وحقق الجندي وفاته في بضع وستين وستمائة.

«مصادر ترجمتـه: الجندي: السلوك في طبقات العلماء والملوك، مخطوط. الخـزرجي: طراز اعلام الزمن، مخطوط».

– لـه اليواقيت في المـواقيت يصفـه الجندي بقوله: «كتاب جليل في فنه يتداوله اهل اليمن» منه نسخة مخطوطة سنـة ٧٤٦هـ في اربعين ورقة بمكتبة الجامع بصنعاء برقم ٣٤ فلك.

٥ – ابو عبد الله محمد
ابن ابي بكر بن محمد الفارسي:

اصلـه من اهل فارس ارتحل والـده إلى اليمن وبها ولد ابنه هذا فتلقي العلم على جلـة الاساتـذة في ذلك الـوقت وكان اكثر تخصصه في علم الفلك والموسيقى والطب. توفي في سنة ٦٧٧هـ «مصادر ترجمته الخزرجي في طراز اعلام الزمن والعقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٠٤. والاهدل: تحفة الزمن بذكر سادات اليمن مخطوط».

– الزيج المظفـري او الزيـج الممتحن. الفه للسلطان المظفر يوسف بن عمر الرسولي يصفه كنج بقوله: «وهو من اهم اعماله يشتمل على جداول للكواكب وغيرها من الجداول الفلكية محسوباً خصيصاً لعرض مدينة صنعـاء» منه نسخة مخطوطـة سنة ١٠٠١هـ في ٢٧ ورقـة بمكتبة الجامع الكتب المصادرة برقم ٦ فلك.

ونسخة اخرى بمكتبة جامعة كمبردج، ويقوم حالياً الاستاذ كنج بوضع دراسة مفصلة عن هذا الزيج.

٦ – الملك المظفر يوسف بن علي الرسولي:

ثاني ملوك بني رسول ولد سنة ٦١٩هـ وحكم اليمن سنـة ٦٤٧هـ ومكث في الحكم ما يزيد على خمسين سنة شغل اكثرهـا في العمران، توفي سنة ٦٩٤هـ. مصادر ترجمته: ابن عبد البـاقي: بهجـة الـزمن ص ٨٨. الخـزرجـي: العقـود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٨ – ٢٨٤. الفاسي: العقد الثمين ج ٧ ص ٤٨٨ ومصادر اخرى لا مجال لذكرها هنا.

– له تيسير المطالب في تسيير الكواكب (انفرد بذكره مؤلف كشف الظنون) وفي مكتبة الجامع (الكتب المصادرة) – كتاب مجهـول المؤلف بعنوان المطالب بتسيير النيرين وحركات الكواكب ضمن مجموعة برقم ٥٢ لعلـه نفس كتابنا هذا.

٧ – مجهول:

من علماء اليمن عاش بعد سنة ٨٠٧هـ.

– له تقويم الكواكب السبعة السيـارة صدره بمقدمة في ٥٧ صفحة في تـاريخ بني رسول وسائر ملوك اليمن إلى سنة ٨٠٧هـ ثم تناول بعد ذلك موضوع علم الفلك. منه نسخة خطية بالمكتبة التيمورية برقم ٢٧٤ رياضيات.

٨ – ابو العقول:

هو محمد بن احمد الشهير بأبي العقول عمل في بلاط السلطان المؤيد داود بن علـي الرسولي في القرن الثامن واوائل القرن التاسع الهجري.

– له الزيج المختار من الازياج «انظر دراسـة عن هذا الـزيج واهميتـه العلميـة في

محاضرة الدكتور دافيد كنج بجامعة صنعاء.»

٩ - عبد الله بن اسعد اليافعي:

ولد في عدن سنة ٦٩٨هـ وحج إلى مكة ثم عاد إلى عدن في سنة ٧١٨هـ رجع إليها مرة ثانية وانتشر صيته ووصفه ابن بطوطة في رحلته وكان من اساطين الصوفية واشتهر بسلامة النية. مصادر ترجمته: الفارسي، العقد الثمين ج ٥ ص ١٠٤. السبكي: طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢٠٣. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٧٤. الخزرجي: طراز اعلام الزمن مخطوط. الشرجي: طبقات الخواص ص ٦٧ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٠٩ «ولاحد تلامذته كتاب في ترجمته، انظر مؤلفنا : مراجع تاريخ اليمن ص ٢٨٨» - طبعة دمشق.

- له ارجوزة في معرفة الشهور الرومية - منها نسخة مخطوطة ضمن مجموعة بمكتبة الامبروزيانا برقم ٢١٩.

١٠ - اسماعيل بن احمد بن عبد الله ابن ابراهيم بن عطية النجراني:

من علماء اليمن في القرن التاسع الهجري نبغ على يديه جماعة من التلاميذ، مصادر ترجمته طبقات الزيدية: ليحيى بن الحسين وملحق البدر الطالع ص ٥٧.

- يقول يحيى بن الحسين له رسائل في علم النجوم والزيجات.

وفي محاضرة كنج ورد شخص يسمى اسماعيل بن عطية النجراني الذي توجد له جداول فلكية بآخر كتاب زيج محمد بن ابي بكر الفارسي. منه مخطوطة بمكتبة الظاهرية بدمشق ولعله نفس المترجم له هنا إذ ان عطية هو جده الثالث.

١١ - عبد الله بن عبد الرحمن ابن ابي بكر بافضل المذحجي:

ولد في تريم من حضر موت سنة ٨٥٠هـ وانتقل إلى الشحر ثم إلى عدن والحرمين. وفي هذه الرحلات كان يتلقى على الشيوخ الذين يلقاهم توفي سنة ٩١٨ هـ مصادر ترجمته العيدروس: النور السافر ص ٩٨.

- له رسالة في علم الفلك.

١٢ - محمد عمر بحرق:

ولد سنة ٨٦٩هـ وانتقل إلى زبيد فتلقى العلم على علمائها وولي القضاء بالشحر من حضر موت ثم رحل إلى الهند وبها توفي سنة ٨٩٣هـ مصادر ترجمته: النور السافر ص ١٤٣.. السخاوي: الضوء اللامع ج ٨ ص ٢٥٣.

- له رسالة في علم المواقيت.

١٣ - عبد الله بن عمر بن عبد الله بامخرمة:

ولد سنة ٩٠٧هـ وتلقى العلم في حضرموت وزبيد وتعز والحرمين ولقب بمفتي اليمن وولي قضاء الشحر سنة ٩٤٣هـ له مصنفات في علوم متعددة منها التاريخ والفقه والهتوف. توفي سنة ٩٧٢هـ. مصادر ترجمته: النور السافر ص ٢٧٨.

- له الجداول المحققة المحررة في علم الهيئة.

١٤ - محمد بن احمد بن عز الدين ابن الحسين ابن العنز:

سمي بابن العنز لان امه ماتت فعطف الله تعالى عليه عنزاً كانت عند حاجته إلى اللبن تنفرد عن الغنم من المرعى ثم تستلقي حتى تمكنه من الرضاع. مولده في صعده سنة الف. وكان من المشتغلين بصناعة الآلات العجيبة منها انه صنع منظاراً عجيباً ابصر به من صعده إلى القرية ربيع، وهي ناحية بعيدة. توفي بهجرة فلله سنة ١٠٥٢هـ مطلع البدور: مخطوط. المحبي: خلاصة الاثر ج ٣ ص ٢٧٦.

له شرح منظومة الهادي عز الدين بن الحسن في معرفة المواقيت: قال ابن ابي الرجال

في وصفه «تكلم فيه على مواد نافعة من علم الفلك الاسلامي وما يحققونه في الكسوف».

١٥ - احمد بن عبد الله السرحي:

حقق كنج عصره بأنه في القرن الحادي عشر الهجري.

- له زيج.

١٦ - عبد الله المثنى السرحي:

أخوه السابق ذكره.

- له الزيج المسمى غاية اتقان الحركات للسبعة الكواكب. مخطوط سنة ١٢٠٨هـ في ٣٠ ورقة بمكتبة الجامع - الكتب المصادرة. برقم ٥ فلك. واخرى برقم ١٤ هيئة وفلك بمكتبة الجامع.

١٧ - هادي بن علي الصرمي:

من المحققين في العلوم التجريبية: اشتغل بدراسة الفلك والازياج والنجوم وعلم الطب. توفي بعد سنة ١١٢٨هـ الحوثي: نفحات العنبر، مخطوط. محمد زبارة: نشر العرف ج ٢ ص ٧٧٨.

- له شمس الاوان فيما تعاقب عليه الملوان - في الفلك -.

١٨ - حسين بن علي بن زيد جحاف:

ولد سنة ١٠٥٤هـ درس في تهامة وصنعاء وتوفي في زبيد سنة ١١٢٧هـ.

له رسالة في علم الميقات ومداخل الشهور العربية وسنيها في الاشهر الرومية. مخطوط سنة ١١٣٢ وفي ضمن المجموعة رقم ٦٤ بمكتبة الجامع بصنعاء.

١٩ - اسحاق بن علي العبدي:

عاش في القرن الثاني عشر الهجري.

- له رسالة في اوائل الشهور العربية ومواقيت الاهلة. منها نسخة مخطوطة سنة ١١٨٠هـ مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٤١١ فلسفة - القاهرة.

٢٠ - علي بن حسن الاكوع:

اشتغل اولاً وزيراً عند المهدي عباس ثم ابنه المنصور علي. ثم نكب سنة ١١٩٣هـ وظل في السجن نحو عام ثم اطلقه واشتغل بالعبادة والطاعة وحج سنة ١١٩٦هـ وإليه تعود عمارة مسجد الحرقان بباب النهرين توفي سنة ١٢٠٣هـ.

- جحاف: درر نحور الحور العين، مخطوط. ونيل الوطر: ج ٢ ص ١٢٩.

- له الجداول المفيدة في الاشهر الرومية والعربية. منه نسخة مخطوطة بمكتبة الامبروزيانا برقم ٢٥٠.

٢١ - محمد بن احمد بن الحسين:

ولد في صنعاء سنة ١١٦٣هـ وله عناية بعلم الادب والطب. توفي سنة ١٢١٧هـ.

- مصادر ترجمته: درر نحور الحور العين: ونيل الوطر ج ٢ ص ٢١٨.

- الف جدولاً يشمل الشهور العربية والرومية والسنين الفارسية - ذكره جحاف -

٢٢ - محمد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل:

ولد في زبيد سنة ١٢١٠هـ اخذ عن علماء عصره وقام بالفتوى في المسائل الفقهية توفي سنة ١٢٥٨هـ وقيل سنة ١٢٦٠هـ نيل الوطر: ج ٢ ص ٢٨٣.

- له رفع الاشتباه في مسألة القطب والجاه. مخطوط بجامعة الرياض سنة ١٠٣٩هـ.

٢٣ - يحيى بن مطهر بن اسماعيل:

ولد في صنعاء سنة ١١٩٠هـ وكان من العلماء المحققين في علم الحديث توفي سنة

١٩٧٠هـ مصادر ترجمته: نيل الوطر ج ٢ ص ٤١١.
- له جدول مفيد في الفلك -

٢٤ - عفيف الدين عبد الله بن احمد الخيري الشماخي الزبيدي:

عاش في القرن الثالث عشر الهجري.
- له الجدول الثمين في معرفة مداخل السنين. مخطوط بمكتبة الامبروزيانا برقم ٥٢٠.

٢٥ - عبد الله بن حمزة بن هادي الدواري:

حكيم ماهر عاش في صنعاء وبرز في علم الطب والنجوم توفي سنة ١٢٦٩هـ.
- له بلغة المقتات في معرفة الاوقات. مخطوط بمكتبة الجامع برقم ٥٠ صنعاء.

٢٦ - حسين بن زيد الهبل؟

- له تحفة الطالب في تسيير النيسرين وحركات الكواكب. مخطوط في ٣٢ ورقة بمكتبة الجامع - الكتب المصادرة - برقم ٤٢ مجاميع - صنعاء.

٢٧ - محمد بن علي بن محمد الديلمي:

يفهم من اسمه انه يمني.
له الزيج المختصر في تقويم الكواكب الخمسة والشمس والقمر ويسمى ايضا «زاد المسافر» منه نسخة مخطوطة سنة ١٠٩١هـ بمدينة اب في ١١٤ ورقة بمكتبة أحمد بن عبد القادر الاهدل بزبيد ومصورة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية.

٢٨ - لطف بن عبد الله بن عبد الله ابن حمزة الدواري «معاصر»:

حفيد عبد الله حمزة الدواري السابق: نيل الوطر ج ٢ ص ٧٩.
- تكميل بلغة المقتات. استكمل فيه جدول جده إلى سنة ١٣٥٩ هجرية.

٢٩ - محمد بن حامد السقاف:

ولد سنة ١٢٦٥هـ بحضرموت وتوفي بمكة سنة ١٣٢٨هـ «مصادر ترجمته الاعلام ج ٦ ص ٣٠٦».
- له نصب الشرك فيما يحتاج إليه من علم الفلك.

٣٠ - عبد الوهاب بن علي بن يحيى الوريث المتوفي سنة ١٣٢٠هـ:

له تحفة الثقات في معرفة الاوقات. ذيل فيه جدول عبد الله بن حمزة الدواري السابق. منه نسخة بخط ابن المصنف احمد بن عبد الوهاب الوريث في ١٢ ورقة برقم ٢ فلك بمكتبة الجامع الكتب المصادرة.

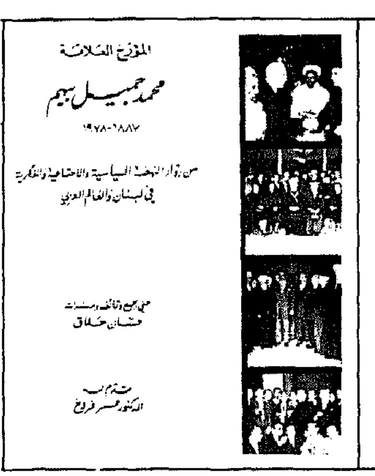
٣١ - عبد الواسع بن يحيى الواسعي المتوفي سنة ١٣٧٩هـ:

- له زهر الزهور في معرفة الساعات والشهور. منه نسخة مخطوطة سنة ١٣٤٦هـ في ٢٤ ورقة برقم ٧ فلك، ضمن الكتب المصادرة، بجامع صنعاء.
وله - ثانياً - كنز الثقات في معرفة الاوقات - مطبوع ومتداول بين الناس.





كتب وردتنا



المؤرخ العلامة محمّد جميل بَيهم ١٨٧٧ - ١٩٧٨

من رواد النهضة السياسية والاجتماعية والفكرية في لبنان والعالم العربي

حسان حلاق

هذا كتاب في جميل بيهم، وهنالك مجاهدون مسلمون كثيرون لا يزالون بحاجة الى مثل هذا الكتاب حتى يحتلوا مكانهم من ذاكرة قومهم على الاقل.

د.عمر فروخ

مقدّمة الكتاب

الخلفية السياسية والاجتماعية للعلامة محمد جميل بيهم

عاش محمد جميل بيهم ١٨٨٧ – ١٩٧٨ في مدينة بيروت في منطقة المصيطبة التي سبق ان اتخذت برجاً لها عرف باسم «برج بيهم». اما الشارع الذي سكن فيه فهو المعروف باسم مختار بيهم.

ولقد برزت عائلة بيهم العيتاني في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية منذ قرون عديدة، فإن امير الماء او الأميرال ابراهيم العيتاني – قبودان باشا – قد ولاه السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر قيادة قسم من الاسطول العثماني. ثم اصبح ابراهيم باشا اشهر الذين تولوا الصدارة العظمى في السلطنة العثمانية وذلك في ١٣ شعبان عام ٩٢٩هـ-١٥٢٣م. وقد تولى الحصار الاول لمدينة فيينا في مطلع عام ٩٣٦هـ ١٥٢٩م، غير انه اعدم في رمضان عام ٩٤٨هـ – ١٥٤٢م. هذا بالاضافة الى ان مكانة الحاج نجيب بيهم العيتاني دعت البابا «لاون» لأن يستقبله

ويجتمع به في اجتماع خاص(١).

والحقيقة ان اسرة بيهم هي فرع من آل العيتاني احدى اهم الأسر البيروتية، وتشير احدى وثائق محمد جميل بيهم الى ان الواقف ابراهيم بن خليل العيتاني كان من أعيان مدينة بيروت في القرن الثامن عشر.

ويذكر المهتمون في تاريخ الأنساب ان اسرة العيتاني من الأسر التي نزحت من المغرب الى بيروت في اعقاب جلاء الأسر الاسلامية عن الاندلس. وقد انفصلت اسرة بيهم عن اسرة العيتاني في أواخر القرن التاسع عشر، وبالذات في عهد حسين بيهم العيتاني بن ناصر بن محي الدين العيتاني. ولهذا الانفصال قصة اجتماعية مرتبطة بمآثر العائلة، وهي ان حسين المذكور كان كريماً مضيافا يحسن الى الفقراء والمعوزين ويوزع اموالا عليهم. ومن اجل ذلك لقبه الناس وقتذاك بلقب «ابي الفقراء»، واصبح الناس يشيرون الى هؤلاء الفقراء والمعوزين على ان حسين بك هو «بيهم» اي والدهم. ومنذ ذلك التاريخ بدأ هذا الفرع من العائلة يأخذ اللقب الجديد «بيهم» منفصلا بالتدرج عن اسم العائلة الأم «العيتاني».

هذا وقد انجب حسين بيهم ستة ابناء هم: ناصر، محمد، يوسف، عمر، مصطفى، وعبد الله. وكان يوسف من المع هؤلاء، اذ ان تجارته الواسعة جعلته على صلة وثيقة بالامراء والمقدمين والمشايخ اللبنانين. ولما انتشر وباء الكوليرا في عهد الامير بشير الشهابي الكبير، توجه يوسف بيهم مع عائلته الى منطقة «عين عنوب» الجبلية، واذ يفاجأ اهل المنطقة بقافلة كبيرة تدخل القرية، وكان دليلها يسأل عن منزل آل بيهم، فاذا بالقافلة محملة بشتى المؤن مهداة من الامير بشير الى اسرة بيهم النازلة في رحابه في الجبل.

وكان لهذه الحادثة وقع وأثر هام في توطيد العلاقة بين آل بيهم وبين الاسرة الشهابية. وكثيرا ما تبودلت الرسائل بين مصطفى بيهم - جد محمد جميل بيهم - وبين الامراء الشهابيين وسواهم من امراء الجبل. والحقيقة ان اسرة بيهم لعبت دورا هاما في احداث ١٨٦٠، اذ ساهمت في اخماد الفكر الطائفي، كما كان لها دور بارز في حماية المسيحيين في بيروت، وقد تولى الامر بالذات عمر افندي بيهم(٢). وكان عمر بيهم رئيس مجلس الشورى في عهد الحكم المصري ١٨٣٠ - ١٨٤٠، وكان الوجه الاول في مدينة بيروت، ورغم ذلك فقد كان مشهورا بتواضعه(٣). ولما سجن الشيخ سعيد جنبلاط في بيروت في اعقاب احداث ١٨٦٠ تولى مصطفى بيهم رعايته في سجنه.

اشتهرت اسرة بيهم بالعمل التجاري. غير ان بعض رجالها أظهروا ميلا للسياسة والثقافة والادب، ففي القرن التاسع عشر ظهر منهم بالإضافة الى حسين وابنيه عمر ومصطفى المفكر حسن بيهم الذي شارك في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية عام ١٢٩٦هـ - ١٨٨٧م، بالتعاون مع الشيخ عبد القادر قباني وبعض رجالات المسلمين. كما شارك حسن بيهم ومحي الدين بيهم باستقبال الامبراطور الالماني غليوم الثاني اثناء مروره في بيروت عام ١٨٩٨، باعتبارهما من اعيان بيروت، وذلك جنبا الى جنب مع ميشال افندي اده مدير الامور الاجنبية، والشيخ عبد القادر قباني رئيس بلدية بيروت، وجبيب باشا السعد، والكونت فيليب دي طرازي وسواهم(٤).

هذا وقد انصرف فريق من آل بيهم لخدمة المجتمع، فابلوا بلاء حسنا في القضايا العربية والانسانية والاجتماعية. فأحمد مختار بيهم كان من الرعيل الاول الذي اشتغل في قضايا الاستقلال. وكان حسين بيهم والد مختار رئيسا للجمعية العلمية السورية التي اعتبرت نواة المجمع العلمي، كما كان شديد الصلة بالامير عبد القادر الجزائري، وبشريف مكة عبد المطلب. الذي جرى بينهما تعاون وثيق من اجل استقلال العرب عن الدولة العثمانية. غير انه من الاهمية ان نذكر ان بعض وجهاء آل بيهم كانوا عثمانيي السياسة. فبعد ظهور حركة سرية في بيروت وتوزيعها المناشير المعادية للاتراك ذكر القنصل الفرنسي العام في سوريا ان عائلة بيهم البيروتية ارسلت الى الوالي رسالة موقعة من وجهائها تدين

ما جاء في المناشير من «افكار هدامة وتدعو لملاحقة صارمة لهذه الألاعيب المجرمة»[٥].

اما محمد بيهم فقد كان عضوا بارزا في مجلس النواب العثماني، ثم اصبح رئيسا لبلدية بيروت، كما اصبح عام ١٩٦٤ وزيراً للمالية. كما كان مختار حسين بيهم عضوا في مجلس النواب العثماني وقد اشترك في المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣، وطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية على اساس اللامركزية، كما رفض استبدال الحكم العثماني بالحكم الفرنسي[٦]. بينما كان محمد بن مصطفى بيهم والد جميل رئيسا للمصرف الزراعي العثماني ونائبا لرئيس بلدية بيروت الشيخ عبد القادر قباني. كما اصبح عبد الله بيهم امين سر الدولة ورئيسا للحكومة عام ١٩٤٢. اما عبد الرحمن بيهم فكان رئيسا لمحكمة الغرفة التجارية. وكان عصام ابن عبد الرحمن بن محي الدين عمر بيهم قنصل لبنان في الاسكندرية، واصبح امين احمد مختار بيهم نائبا عن بيروت في عهد الاستقلال[٧].

بالاضافة الى ذلك فقد عمل بعض آل بيهم في العمل الاسلامي، ومن مآثر عبد الله بيهم بناؤه مسجد عين المريسة في عام ١٨٨٧، وبالرغم من ان البعض يذكر بانه انشأه بالتعاون مع الشيخ محمد علايا والشيخ محمد الهبري، غير ان اللوحة الموضوعة في اعلى الباب بالحائط الشمالي للمسجد، لم يذكر عليها سوى اسم عبد الله بيهم[٨].

ويذكر رئيس الوزراء السوري الاسبق خالد العظم بأنه عندما درس مشروع مد سكة حديد على طريق بيروت – دمشق، قدر الخبراء نفقات التأسيس بمبلغ اربعة وعشرين مليون فرنك ذهبا. وعلى الاثر طلب احد وجهاء بيروت السيد حسن بيهم امتيازا بهذه السكة، فناله بموجب الفرمان الصادر في ٧ حزيران (يونية) ١٨٩١. غير انه باع الامتياز «لشركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية – بيروت – دمشق – حوران» بمبلغ دفع له اسهما في الشركة الجديدة بحيث خصص له ولحملة اسهم شركة طريق بيروت – دمشق ١٢,٥٠٠ سهما لقاء افراغهم حقوقهم اي ما يعادل ٦٥٠٠٠٠٠ فرنك[٩].

اما فيما يختص بالعلامة محمد بيهم فاسمه الأساسي جميل وقد تكنى باسم محمد جميل تبركا وتقربا من النبي محمد(ص)، وهو ابن محمد بن مصطفى بن حسين بيهم بن ناصر العيتاني. ولد في بيروت عام ١٨٨٧ وتلقى علومه الاولى في «الكلية العثمانية» التي اصبح اسمها فيما بعد «الكلية الاسلامية» للشيخ احمد عباس الأزهري. ثم انتقل الى مدرسة «اوليفيا» الفرنسية التي اصبحت نواة للبعثة العلمانية الفرنسية «الليسيه» «وبهذا يكون محمد جميل بيهم قد وجد طريقه الى ثلاث لغات معا: العربية والتركية والفرنسية. وهذه وحدها كانت ضمانا للحصول على ثقافة غنية جداً»[١٠].

وفي عام ١٩٢٨ تقدم الى معهد الآداب بجامعة باريس برسالة عنوانها: «الانتدابان في العراق وسوريا» للحصول على الدكتوراه، باشراف المستشرق «ديمونبين» (Demnbynes). عرف العلامة بيهم بكثرة رحلاته وتجواله في اقطار العالم، فمنذ اوائل القرن العشرين زار اوروبا مرات عديدة اولها عام ١٩١١ بالاضافة الى تركيا. كما زار اميركا الشمالية بين عامي ١٩٣٨ – ١٩٣٩ لخدمة القضية الفلسطينية. وزار الباكستان والهند عام ١٩٥١ للمشاركة في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في كراتشي، كما زارهما عامي ١٩٦٧ و ١٩٧٠. وفي عام ١٩٥٧ تلقى دعوة لزيارة الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، وبعد عودته منهما الف كتابا عن انطباعاته تميز بالحياد والجدية[١١]. وفي عام ١٩٦٨ وصل الى كشمير، بينما وصل عام ١٩٧٠ الى اليابان والهند الصينية. بالاضافة الى رحلات عديدة الى اوروبا والدول العربية. وكان لهذه الرحلات اثر هام وواضح في معلوماته، واعتبر ان هذه الرحلات كانت بمثابة مدرسته الحقيقية التي تلقى فيها علومه الخاصة ومعارفه العامة[١٢].

تزوج محمد جميل بيهم للمرة الاولى في ٧ ايار (مايو) ١٩١٣ من زينب عبد الرحمن بيهم انجب منها فتاة فقط توفيت اثر الولادة. ثم تزوج للمرة الثانية عام ١٩٢٩ من المجاهدة

السورية نازك العابد ابنة مصطفى باشا العابد التي لم يرزق منها ايضا ونظرا لجهوده الخيرة منح عام ١٩١٦ الوسام العثماني. هذا وكان له الفضل في تكوين العديد من المؤسسات والجمعيات والاحزاب، كما كان له الفضل في انشاء دار الكتب الوطنية بالتعاون مع صديقه الكونت فيليب دي طرازي عرضت عليه رئاسة الوزراء في عهد الانتداب وفي عهد الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٦، وفي اواخر عهد الرئيس فؤاد شهاب غير انه رفضها في كل المرات.

اما بقية نشاطاته وجهوده فإننا سنتلمسها من خلال هذه الدراسة المتواضعة التي تعتبر الدراسة الاولى الجامعة لنشاطه السياسي والاجتماعي والفكري، غير انها يجب ان لا تكون الاخيرة، ذلك لان النشاط المكثف والمتعدد للرجل يستدعي اخراج عدد آخر من الدراسات عن اعماله وجهوده التي بذلها في سبيل لبنان والعالمين العربي والاسلامي.

وأخيرا لا يسعني الا ان اتقدم بالشكر لآل بيهم وفي مقدمتهم السيدين عادل بيهم وعفيف بيهم - شقيقي الفقيد - اللذين وضعا بين يدي بعض المجموعات الوثائقية الخاصة بالعلامة محمد جميل بيهم، كما أمداني ببعض مجلداته الخاصة. كما لا يسعني الا ان اتقدم بالشكر للسيد توفيق حوري الذي عرفني بالسيدين السابقي الذكر، والذي سهل مهمتي في اعداد هذه الدراسة، كما لا بد من ان اقدم شكري للاستاذ عبد الغني سلام - صاحب مؤسسة اللواء - الذي تبنى هذه الدراسة لتكون كتابا علميا يبحث في تاريخ أحد رجالات لبنان وأحد رواد نهضته السياسية والفكرية والاجتماعية. واخيرا اتقدم بالشكر للدكتورة زاهية قدورة - رئيسة لجنة تكريم العلامة محمد جميل بيهم - نظرا لجهودها ونشاطها. كما ابدي امتناني للدكتور عمر فروخ - عضو اللجنة - الذي قدم لهذا الكتاب وعرَّف به.

●

حسان حلاق ١٣ ايلول ١٩٧٩

هوامش

(١) الدكتور عمر فروخ. من محاضرة عن محمد جميل بيهم في المركز الثقافي الاسلامي، في ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨.

(٢) انظر: محمد كرد علي: خطط الشام ،٣، ص.٩٢.

(٣) انظر: اوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥، ج١، ص.١٩.

(٤) حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص.١٥٥.

(٥) وزارة الخارجية الفرنسية - الارشيف الدبلوماسي - تركيا: M.A.E.F. Archives Diplomatiques Turquie. Vol. 23,R No.48.

نقلا عن: د.وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٢٠ ص.١٣٨. انظر ايضا: ص.١٤٠.

(٦) الجريدة (بيروت) ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٤.

(٧) اوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥، ج٢، ص.٩٠ - ٩١.

(٨) د. صالح لمعي مصطفى: مساجد بيروت، ص.١٠٢، وهامش رقم ٩٦ في ص.١٢١.

(٩) خالد العظم: مذكرات خالد العظم، المجلد الثاني، ص.١٤٨ - ١٤٩.

(١٠) د.عمر فروخ: محمد جميل بيهم في التاريخ المعاصر، محاضرة في المركز الثقافي الاسلامي. نشرت في مجلة الفكر الاسلامي (بيروت) العدد الثاني، شباط (فبراير) ١٩٧٩. كما نشر الجزء الآخر منها في عدد آذار (مارس) ١٩٧٩.

(١١) هذا الكتاب هو «اسرار ما وراء الستار - الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية كأنك تراهما» وحرصا منه على عدم اعطاء هذا الكتاب اي طابع سياسي منحاز فقد نشره على نفقته الخاصة وقال في مقدمته ص. ٧ - ٨ «هذا وقد اشرت في صدر الكتاب الى ان الحقوق محفوظة للمؤلف لاني لا اود ان يجعل احد من انصار المعسكرين: الشرقي والغربي، من هذا الكتاب سلاحا له في الحرب الباردة المنتشبة بين هذين المعسكرين بنشر بعض فصوله التي تتفق مع غايات الناشر دون البعض الآخر...».

(١٢) انظر: يحيى الكعكي: كراس محمد جميل بيهم ١٨٨٧ - ١٩٧٨، ص.٤٥.

نرحب بالاصدقاء المشاركين في باب «رسائل الماجستير والدكتوراه» ويسرّنا ان نقدّم في هذا العدد رسالة الاستاذ طارق فتحي سلطان عن تاريخ الصين ولطولها سنقسمها إلى حلقتين ونقدم كذلك رسالة الدكتور عماد الدين خليل عن «الامارات الارتقية في ديار بكر». ولا يسعنا إلا تقدير جهد الصديقين مكررين ترحيبنا برسائل جديدة تزيد في غنى مكتبتنا العربية وتوفر جانباً مهماً في ببيليوغرافيا التاريخ.

الامبراطوريات الصين

جامعة الموصل
كلية الاداب قسم التاريخ
رسالة ماجستير

(الحلقة الاولى)

إعداد طارق فتحي سلطان

يتناول هذا البحث الامبراطوريات التي حكمت بلاد الصين في العصور القديمة، مع تناول الاوضاع الداخلية التي سادت بلاد الصين مركّزين على اهم الاحداث المحلية فيها، في محاولة لفهم الظروف المترتبة على طبيعة ونوعية سياسة الدولة، على ضوء هذه الاحداث. وسنتناول فيها الامبراطوريات التي حكمت بلاد الصين من ظهور الاسلام وحتى سقوط دولة المغول في الصين.

لقد عاشت الصين قرونا عديدة قبل الميلاد مجزأه مفككة، تحت سيطرة الحكام المحليين، والذين غالباً ما دخلوا في صراعات داخلية فيما بينهم. ادت إلى تمزيق البلاد اكثر من ذي قبل لما تخلفه هذه الصراعات من نتائج سلبية. وظلت بلاد الصين تعاني من التجزئة حتى مجيء اسرة كين (Chin) في سنة ٢٤٦ ق.م، والتي استطاعت ان تقوم بعملية توحيد كبرى لبلاد الصين،وقد تم لها هذا التوحيد في سنة ١٢٢ ق.م. لكن الامور تغيرت عندما سقطت هذه الاسرة في سنة ٢٠٢ ق.م. فعادت بلاد الصين الى حالة التجزئة والانقسام حتى مجيء اسرة سوي (Sui) (٥٨٠ – ٦١٨م) التي اعادت الى الصين وحدتها. لكن اغراق اسرة سوي (Sui) في التوسع الخارجي وفي اعمال السخرة ادى بها الى السقوط، حيث عصفت بها ثورات فلاحية متتابعة، فقامت على اعقابها امبراطورية التانغ[١].

(أ) امبراطورية التانغ. The Tang Empires' ٦١٧ – ٩٠٧م.

بعد ان امضت بلاد الصين فترة قاربت الستة قرون عاشتها في الفوضى والنزاعات. استطاع شاب جريء يدعى لي شيه من (Li Shih-Min)[٢]، الذي عرف بمقدرته وبكفاءته، ان يخلص البلاد مما تعانيه من الفوضى

والانقسام، فاستطاع بمساعدة الترك العسكرية من احتلال مدينة جانغ آن (Chang An) عاصمة امبراطورية السوى في نهاية عام ٦١٧م[٣].

وقد كان والد (Li Shin-Min)، حاكما عسكريا لاحدى المقاطعات الصينية، في عهد اسرة سوي، وكان من الموالين لهذه الاسرة، وبعد ان تم احتلال العاصمة (Chang An) نصب اباه على عرش الامبراطورية – التي اسسها هو باسم امبراطورية التانغ – عام ٦١٨م، وقام هو بتجريد الحملات العسكرية، التي استمرت اربع سنوات، حيث اخضع فيها اجزاء عديدة من بلاد الصين، ثم لم يلبث ان اعتلى العرش في سنة ٦٢٦م، وتوج باسم الامبراطور تاي – تسونغ (Tai-Tsung) في ٤/٩/٦٢٦م. وقد استطاع في مدة حكمه التي استمرت ٢٣ سنة ان يعيد الى الصين سابق عهدها ومجدها، فضمت منغوليا بكاملها الى الصين سنة ٦٣٠م، واخضع اتراك التركستان، وسكان الواحات في صحراء غوبي. واتخذ منهم انصاراً وعيوناً له بعدما عرفوا بعدائهم السابق للصين[٤]. وكان معظم سكان هذه الواحات من رجال الحرب والرعاة ويعيشون على التجارة والزراعة وشكلت منطقتهم نقطة اتصال الحضارات الصينية الساسانية، الهندية، العربية وغيرها. ويتكلم سكان هذه المناطق لهجات هندواوربية[٥].

ونتيجة لهذا التوسع الذي شملته امبراطورية التانغ، فقد كانت بعض المناطق التي خضعت للنفوذ الصيني، تعتبر الصينيين حكاماً غرباء بالنسبة اليها، لهذا كانت قسم من هذه الولايات، ينتهز الفرص المؤاتية لشق عصا الطاعة، معلناً الثورة ضد النفوذ الصيني، ففي سنة ٦٤٥م، اعلنت مقاطعة كوغوريو (KoGuryo) الثورة ضد امبراطورية التانغ، فتوجهت اليها حملة عسكرية لاخماد الثورة في المقاطعة، وفعلا تمكنت جيوش الامبراطورية من اخمادها، واعتبر ١٤،٠٠٠ فرد من سكان مدينة (Liao-tung) عبيدا، لولا صدور مرسوم امبراطوري إعاد لهم حريتهم فأخذ منهم ١٠٠٠ شخص الى العاصمة ليشاهدهم الناس[٦] ويبدو أن هذا العفو الذي شمل سكان المدينة جاء كمحاولة صفح من الامبراطور عن الثائرين في محاولة لكسبهم الى جانبه سيما وقد عرف (Tai-tqung) بدهائه وسياسته المتسامحة، بجلب اكبر عدد من السكان الى جانبه.

وقد قام الامبراطور (Tai-Tsung) بتوحيد القوانين الكنفوشية، واعتبر بلاطه من اعظم البلاطات التي عرفتها الصين[٧]. واعقبه في حكم الصين الامبراطور كاو – تسونغ (Kao-Tsung) ٦٤٩ – ٦٨٣م الذي وسع بلاد الصين، فقد وجه ضربات للترك، وساعد سيلا (Silla) ضد خصومها، حيث كانت تتقاسم شبه جزيرة كوريا ثلاث ممالك هي كوكولي (Kokuli) وسيلا (Silla) وبيكج (Paikche) فتحالفت مملكتا (Kokuli) و (Paikche) ضد الـ (Silla)، فاستنجدت الاخيرة بالصين، فامدتها بقوة عسكرية قضت على مقاومة الـ (Paikche) ودحرت جيوشها، فاستنجدت (Paikche) باليابان، لمهاجمة ال (Silla) ، الا ان الصين وقفت لهذه المحاولة بالمرصاد، فأحرقت ٤٠٠ سفينة يابانية[٨]، وبذلك اصبحت بلاد كوريا موالية للصين.

ولكن سرعان ما دب الضعف في هذه الامبراطورية بسبب ضعف الاباطرة ودسائس البلاط، وما بلغته بعض السراري والمحظيات من المكانة والنفوذ، حتى استطاعت ان تعلن احداهن نفسها امبراطورة على البلاد[٩]، وهي الامبراطورة (Tse-Tien)، كانت لها شخصية قوية، حيث نظمت الجيوش وقادتها في مجال المعارك، كما رعت الآداب والفنون[١٠] ، وقد استمر هذا الوضع المتدهور فترة من الزمن الى ان استطاع الامبراطور هسوان تسونغ (Hsuan Tsung) ٧١٢ – ٧٥٦م (٩٣ – ١٣٩هـ) ان يضع حدا له لدى اعتلائه العرش، فقد بلغت السيطرة الصينية في عهده اقصى مداها، فدخلت في حدود الامبراطورية من الغرب جبال تيان شان، وجبال البامير، وفرغانة، وطشقند (الشاش) وجلجيت، اما كشمير وبلخ فقد اصبحتا تحت حماية الصين، وتحالفت الصين مع بخاري وسمرقند ضد

المسلمين، وبسطت السيطرة الصينية على التركستان بكامله، واصبحت للصين السيطرة على الممرات والمجازات المؤدية الى الهند، ومضائق المحيط الهندي، واستطاعت تأمين الحماية للقوافل التجارية[11]، بسيطرتها على الطرق عبر البامير وحوض التاريم[12]

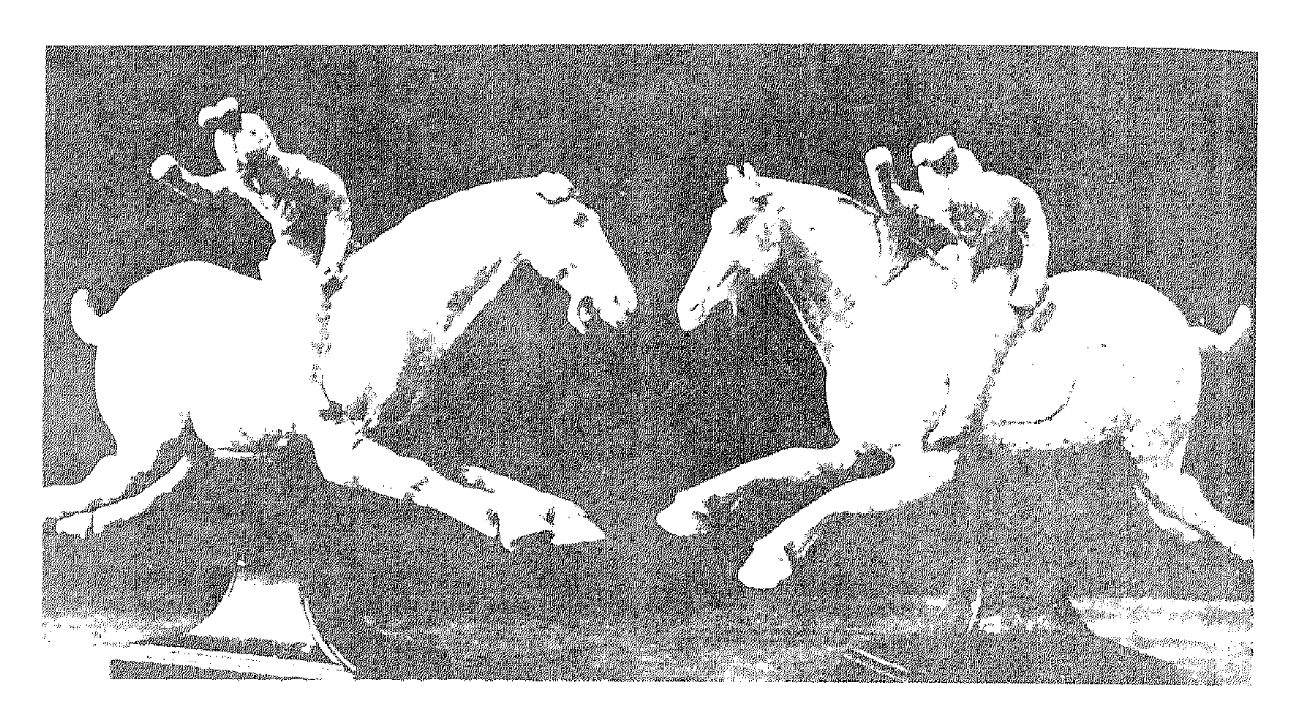
الا ان هذا التقدم الذي احرزته الصين في هذه المجالات، وما بذلته من جهد في توسيع رقعة حدودها، قد انهار فجأة عندما هاجم احد القواد الصينيين اتراك طشقند (الشاش) على الرغم من ولائهم للصين[13] ، فقامت مملكة الطاجيق (Tqdjik) (التركية) بدحر جيش صيني في سنة ٧٥١م الا ان الصين سرعان ما استرجعت سيطرتها في اواسط آسيا بعد فترة قصيرة[14].

وفي نفس السنة ٧٥١م حدثت موقعة نهر تلاس (Talas) بين المسلمين والجيش الصيني، حيث دحر الجيش الصيني واسر منه الكثير. وقد سمى العرب هذه الموقعة بموقعة نهر طراز حيث كان قائد الجيش هو زياد بن صالح احد قادة الجيش العباسي في خراسان[15]. وفي نفس الوقت الذي حدثت فيه موقعة تلاس كانت الصين تعاني من ازمات وحروب داخلية فقد دحر الخطاي (Khitan) جيشا صينيا في منغوليا، وقام الخطاى باقتسام منشوريا مع مملكة بوهاي (Po-Hai) (في كوريا). يضاف الى ذلك تزعزع السيطرة الصينية في مقاطعة يونان (Yunnan) في جنوب الصين حيث قامت مملكة نانجاو (Nanchao) بطرد الحامية الصينية من الاقليم[16] وقد كلف القضاء على هذه الثورات والاضطرابات الامبراطورية الصينية الكثير من الاموال والارواح[17].

وفي سنة ٧٥٥م أعلن آن-لوشان (A n Lu-Shan) الثورة ضد الامبراطورية، وكان هذا قائداً تترياً، حاز على ثقة الامبراطور (Hsüan-Tsung)، فعينه حاكماً على ثلاثة مدن حدودية في الشمال، في مقاطعة هوبي (Hopei)، حيث تولى إدارة شؤونها المدنية والعسكرية. وفي شتاء سنة ٧٥٥م قاد (An Lu-Shan) ١٥٠,٠٠٠ رجل من هوبي قاصداً مدينة لو - يانغ (Lo-Yang). في وقت لم تكن فيه الحكومة مستعدة لمواجهة هذ الثورة، فقامت على عجل بإعداد جيش قوامه ٦٠,٠٠٠ رجل من المتسكعين في هونان، غير المدربين، على اساليب القتال، فدحر الثوار الجيش الامبراطوري وسقطت لو - يانغ، ثم اندفع الثوار باتجاه مدينة جانغ - آن (Chang-An)، حيث نهبوا المدن الواقعة في الطريق من لو - يانغ إلى جانغ - آن، ثم دخلوا جانغ - آن حيث نهبوا القصر الامبراطوري وارسلوا محتوياته إلى إقليم هوبي وانتشرت الثورة في مناطق متعددة من هوبي حيث انضم إلليها ٢٠٠,٠٠٠ رجل وكذلك في وادي نهر وي (Wei) وقد دفعت الحكومة اعداداً من جندها في الحدود الشمالية الغربية باتجاه ممر تنغ ان (Tung Kaun)· إلا ان هذا الجيش قد دحر ايضاً في سنة ٧٥٦م، ففر الامبراطور هسوان - تسونغ (Hssän Tsung) إلى شسوان (Szechuan)[18].

ثم قتل قائد الثورة من قبل ابنه، كما تنازل الامبراطور هسوان - تسونغ عن العرش لابنه سو - تسونغ (Su Tsung)، فقام هذا بتنظيم المقاومة للقضاء على الثورة في الحدود الشمالية الغربية في كانصو، وبمساعدة الاويغور[19] وسكان التبت (Tu-Fan) ونان مان (Nan-Man) والتا - شي (Ta-Shi)، الذين وعدهم الامبراطور بالاموال[20] وبذلك تم القضاء على الثورة، واسترد العاصمتين جانغ - آن ولويانغ، إلا ان مساعد الثائر المدعو (Shih sze ming) ظل رافعاً راية العصيان فتم القضاء عليه بمساعدة الاويغور، وقد استغرق القضاء على هذه الثورة عدة سنوات انتهت في سنة ٧٦٣م، وقد عرفت هذه الثورة في التاريخ بثورة آن شيه (An-Shih). وعلى الرغم من القضاء على هذه الثورة الا ان الاوضاع ساءت بسبب معارضة قواد الجيش للحكومة المركزية، وقد ظل هؤلاء الحكام يجمعون الضرائب لهم دون الحكومة، وظلوا يتوارثون حكم المناطق في اقليم هوبي، من دون ان يتلقوا التعيين من الحكومة المركزية[21].

وفي اثناء هذه الثورة العارمة التي حدثت



تمثالان من الفخار يمثلان سيدتين من اسرة تانغ يلعبان البولو على حصانيهما (القرن السابع ق. م.)

في الصين. قام المسلمون في سنة ٣٥٨م (١٤٠ - ١٤١هـ) بنهب مدينة كانتون حيث كانوا على درجة كبيرة من القوة، فأخذوا اسلاب المدينة إلى البحر[٢٢]. ان هذه الثورة تدعو الباحث إلى التأمل في السبب الذي قاد المسلمين إلى اعلان الثورة في مدينة تجارية ضخمة مثل كنتون مع العلم ان للمسلمين مصالح تجارية في هذه المدينة منذ وقت غير قصير. ويبدو ان اوضاع المسلمين في المدينة قد تأثرت بهذه الثورات، ولربما تعرض المسلمون فيها الى الاضطهاد من قبل السكان المحليين، او من قبل المسوولين عن المدينة. ولربما تعرضوا للقتل، مما دفعهم إلى ترك المدينة واخذ اموالهم منها، حيث اخذوا ما خف وزنه وغلا ثمنه وتركوا الباقي او احرقوه كما تدعي المصادر.

وفي سنة ٧٨٢م (١٦٥ - ١٦٦هـ) حدثت ثورة في العاصمة، قادها التجار[٢٣]، ويبدو ان سبب قيام هذه الثورة هو محاولة الدولة السيطرة على التجارة او بسبب فرض ضرائب اضافية على التجار.

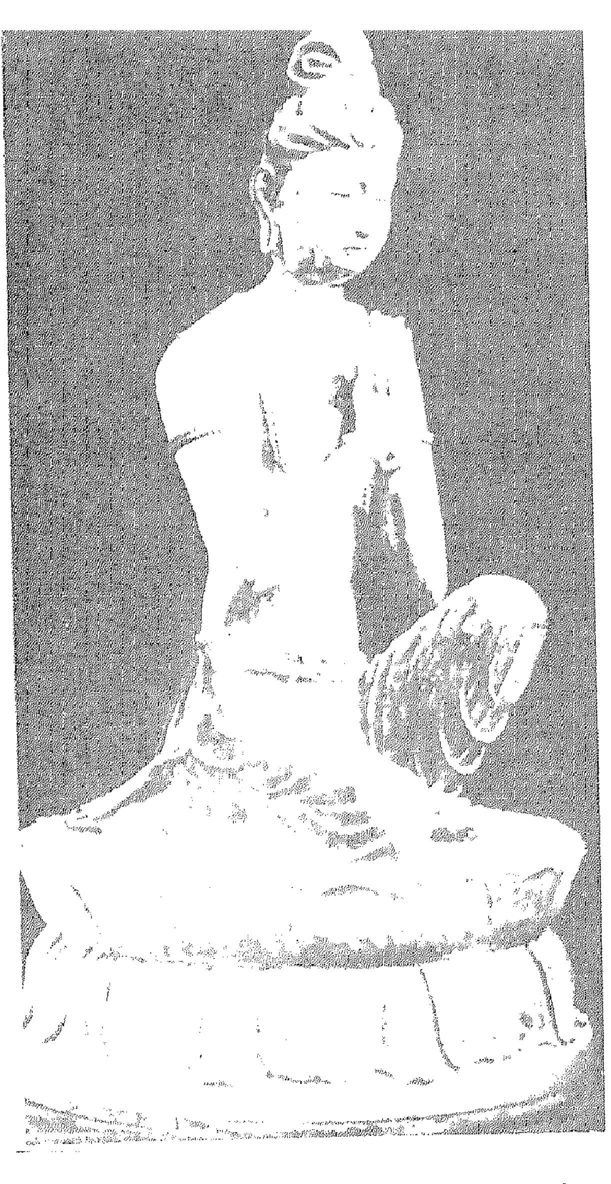
وفي سنة ٧٨٢م (١٦٥ - ١٦٦هـ) حدثت ثورة في العاصمة، قادها التجار[٢٣]، ويبدو ان سبب قيام هذه الثورة هو محاولة الدولة السيطرة على التجارة او بسبب فرض ضرائب اضافية على التجار.

ولعبت الاحوال الطبيعية دوراً في تأزم الوضع، فقد ادى جفاف عام ٨٧٣م الذي حدث في شان تونغ (Shantung) وهونان، إلى انخفاض محصول الحنطة إلى النصف، كما ان المحاصيل الاخرى اصيبت بأضرار بالغة، ومع ذلك استمر الموظفون بالمطالبة بالضرائب، وقد ضرب بالسياط من لم يدفع ما عليه من ضرائب، مما حدا بالفلاحين إلى اعلان الثورة[٢٤].

وفي سنة ٨٧٤م (٢٦١ - ٢٦٢هـ) قام (Wang Hsien-Chih) وهو من الفلاحين - بقيادة ثورة فلاحية في شان - تونغ (Shantung)، وفي السنة التالية انضم إليه تاجر الملح (Huang-Chao) بمن معه من الثوار واعلنوا الثورة ضد الحكومة. وقد اصدروا بياناً، نددوا فيه بالضرائب العالية التي فرضتها الحكومة على الشعب، وبالاجراءات القمعية، فانطلقت الثورة من هونان واتجهت إلى انهوى (Anhwei) ومن ثم إلى (Hupeh)، وفي سنة ٨٧٨م قتل (Wang hsien-Chih) في حادث، فظلت الثورة تحت قيادة (Huang-Chao)، الذي قاد الثوار عبر

نهر اليانغستي واحتل مناطق واسعة من (Kiangsi)، فاضطربت المناطق الواقعة جنوب نهر اليانغستي، واشتعلت فيها الثورة، وقد ازداد عدد الثوار بعد احتلالهم لـ (لو - يانغ) حتى بلغ عددهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل، والتقوا بالجيش الامبراطوري في ممر (Tungkuan) فدحروه. مما اضطر الامبراطور الصيني الى الالتجاء إلى . شسوان (Szechuan)، فدخل الثوار العاصمة جانغ - آن، وقد قام الثوار بقطع العهود على انفسهم لتحسين الوضع الراهن، وقاموا بتوزيع الاموال على الفقراء، بالاضافة إلى قيامهم بتصفية كل العناصر المناهضة لهم(٢٥).

وقد اشارت المصادر العربية إلى هذه الثورة بوضوح، وما رافقها من مآس قاساها الشعب الصيني في ثورة سنة ٢٦٤هـ فقد ذكر المسعودي: ان يانشو (كان شريراً يطلب الفتنة، ويجتمع إليه اهل الدعارة والشر، فلحق الملك وارباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكرة، وانه ممن لا يبالي به، واشتد امره، ونما ذكره، وكثر عتوه، وقويت شوكته، وقطع اهل الشر المسافات نحوه، وعظم جيشه، فسار من موضعه وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقوا... وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس. وغير ذلك من اهل الصين، فقصد هذا العدو إلى هذه المدينة فحاصرها، واتته جيوش الملك فهزمها، واستباح ما فيها. فكثرت جنوده، وافتتح مدينة خانقوا عنوة، وقتل من اهلها خلقاً لا يحصون كثرة، واحصي من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتي الف. وانما احصى ما ذكرناه من هذا العدد لان ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها، وكذا من جاورها من الامم ليصير ذمة لها في دواوين لها، بكتاب قد وكلوا باحصاء ذلك... وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقوا من غابات شجر التوت. إذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه. وما يطعم منه لدود القز الذي ينتج منه الحرير... وسار يانشو من بلد الى بلد فافتتحه... وقصد مدينة انموا - واعتقد ان اسم هذه المدينة هي (Anhwei) - وهي دار



تمثال بوذية من عائلة وانغ (القرن الثامن ق.م.).

الملك، فخرج إليه الملك في نحو مائة الف ثم كانت على الملك... فانحاز الملك إلى مدينة في اطراف ارضه(٢٦)!..

وكان من جملة نتائج هذه الثورة،، ان فقدت كانتون مركزها التجاري، في هذه الفترة، ولم تستعد مكانتها التجارية إلا فيما بعد(٢٧).

ونتيجة لهذه الاعمال التي قامت بها الثورة، فقد استنجد الامبراطور الصيني بالاتراك الغربيين (Shato) وخاتاتهم فامده (Li Ke-Yung) بجيش كان هو على رأسه، فدخل العاصمة جانغ - آن، واعقب دخوله العاصمة

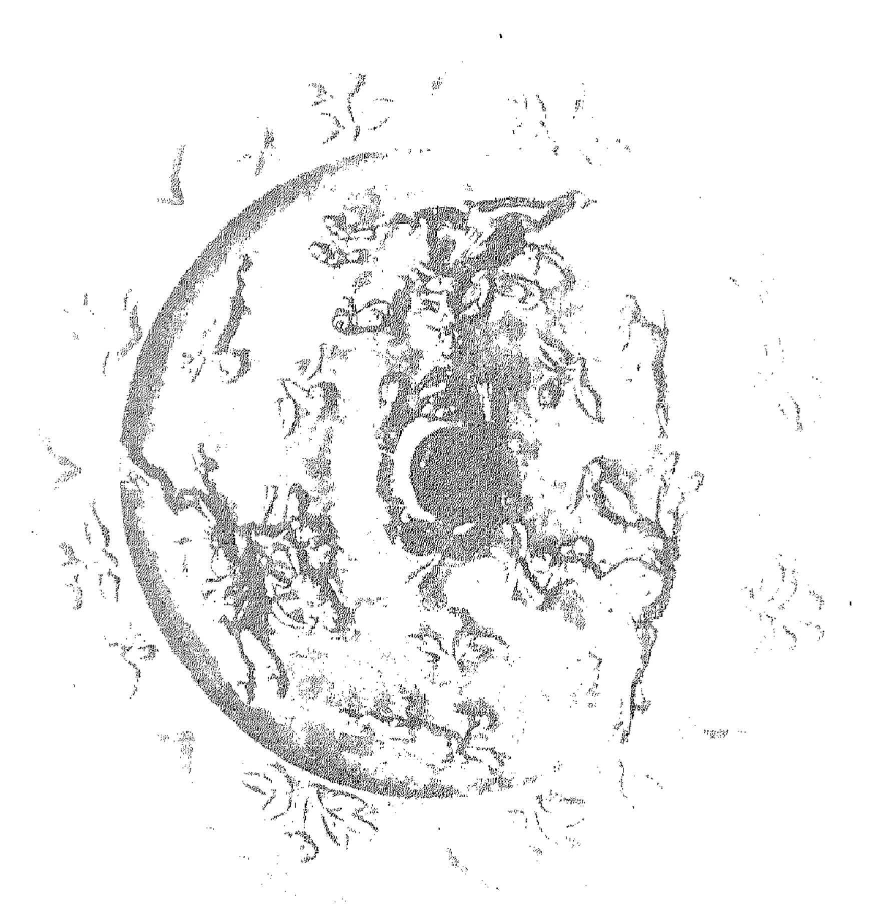
دخــول الجيش الامبــراطــوري فــانسحبــب إلى هـــونـــان ثــم إلى (Hung-Chao) شان - تونغ (Shantung)، حيث قتل قـائد الثورة في سنة ٨٨٤م (٢٧٠ - ٢٧١هـ). في جبال (Taishan)، وبهذا فشلت الثورة[٢٨].

وقد ايد المسعودي هذه النجدة التركية فقال (وكاتب ملك الصين من المدينة التي انحاز إليها، المتاخمة لبلاد التبت، وهي مدينة من...، ملـك الترك ابن خـاقان، فـاستنجده، واعلمـه ما يلزم الملوك من الواجبـات، إذا استنجدهـا اخوانها من الملوك، وان ذلك من فرائض الملك وواجباته، فأنجده ابن خاقان بولد له بنحو من اربعمائة الف فارس وراجل. وقد استفحل امر يانشو، فالتقى الفريقان جميعاً، فكانت الحرب بينهم سجـالا نحـواً من سنــة، وتفـانى من الفريقين خلق كثير، ففقد يانشو، فقيل انه قتل، وقيـل انه احـرق، واسر ولـده والخواص من اصحابه، وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه...)[٢٩].

ويـرجع اسبـاب هذه الثـورات إلى عدة عوامل منها التذمر من الضرائب المفروضة على الشعب، فكانت ضرائب الإرض مـرتفعة وإذا لم يتمكن الفرد من تسديد ما عليه من ضرائب تتحمل عائلته جزئاً كبيراً منها ويؤدي مكانها اعمــال سخـرة للحكـومـة قـد تصـل إلى ٣٠ سنــة[٣٠]. كمـا مـارس ملتـزمـو الضرائب اساليب قاسية ضد من لم يستطع دفع ما عليه من ضرائب، حيث كان يرسل إلى الحدود ليقاسي الامرين في المناطق التي يرسل إليها سواء اكان المسؤول عنها حاكم عسكري او غيره[٣١]. كما ان ايجار الارض الذي كان يدفعه الفلاحون لاصحاب الاراضي كان مرتفعاً جداً فقد بلغ ايجار الـ (Mon) الـواحد من الارض، مــن ٥٠ - ١٠٠ (Cattes) سنوياً[٣٢].

لقد امتد حكم اسرة التانغ، قرابـة ثلاثة قرون، توسعت خلالها حدود امبراطورية الصين، إلى مدى لم تبلغه اية امبراطورية قبلها، فهي

مرآة برونزية من عصر عائلة تانغ (٦١٨ - ٩٠٦ ق.م).

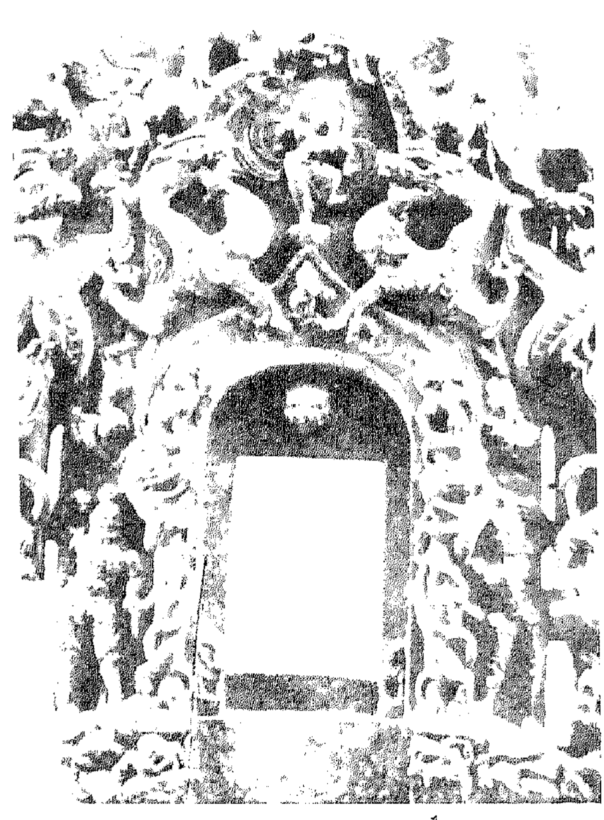


لم تكتفي بما فعلته اسرة سوى (Sui)، من توحيد البلاد فقط، بل وسعت رقعة املاكها[٣٣] فقد اعادت هذه الاسرة إلى البلاد شيئاً من الاستقرار وقامت بحفر القنوات لاستخدامها في النقل التجاري والري، لذلك نجد ان الحركة التجارية والنشاط التجاري يزداد اكثر من ذي قبل، فنما الانتاج وتطور النقش والفخار المزجج، كما ازدهرت المدن وتوسعت، فتطورت اساليب الحياة، كما عملت الدولة على تحسين وتطوير قوتها العسكرية، فأصبح جيش الصين قوة لا يستهان به، مقارنة بجيوش الدول المجاورة، مثل بلاد التبت وكوريا وسنيكيانج، كما ادخل نظام الامتحانات الحكومية كشرط اساسي لتولي الوظائف في الدولة، وكان هذا النظام قد استخدمته اسرة سوى كشرط لتولي الوظائف، فلما جاءت اسرة التانغ ابقت على هذا النظام واستخدمته، كما انتعشت الحركة العلمية في الصين ونشطت فأنشىء معهد هاولن (Haulin)[٣٤].

إلا ان هذا الاصلاح كان نظرياً اكثر مما هو عملياً، فاصبحت الادارة من التعقيد والتشابك بحيث بدا من المستحيل تقريباً، اجراء اصلاحات فعلية في البلاد، فتمسك الموظفين بالتقليد، والاخذ بالاعراف المستبدة يضاف له جهل الموظفين المدنيين، لما يعانيه الفلاحين من مشاكل، بالنظر لكونهم بعيدين عن واقع الفلاحين، وتحسس ما يعاونونه من ظلم واضطهاد.

لذلك كانت الحكومة تضطر إلى إلغاء، او تعديل القرارات التي سبق وان اصدرتها، وحتى قبل ان تجني ثمار تلك القرارات، او حتى قبل ان تطبق فعلاً، فالسلطة مصدرها الامبراطور، الذي يصدر اوامره او قراراته من البلاط، بينما كانت التعليمات والارشادات تصدر عن الاجهزة الكبرى والمصالح الادارية الرئيسية، وترسل الموظفين والحكام الاداريين للعمل في الولايات[٣٥].

لهذا نجد ان سكان البلاد لا يجدون الرعاية التي تسمح لهم بتمشية امورهم، فالتوسع في الجيش في فترة التانغ، وما ترتب



واجهة «الاسطبَّة» برج يوذي على شكل هرم (القرن السابع ق.م).

عليه من اجراءات، اضرت بالتجارة والفلاحين، بحيث ادى هذا إلى ثورات عديدة، كما مر بنا، كما هبط عدد الفلاحين للفترة من ٧٥٤ – ٧٣٩م من ٥٢ الى ٣٠ مليون نسمة، وما ترتب على هذا من مشاكل سواء اكانت هجرة الفلاحين لاراضيهم، او قيامهم ببيعها او وقوعهم تحت اعمال السخرة[٣٦]. لهذا نجد احد الشعراء يعبر عن هذا الوضع بقوله:

(تزداد حياة جيراننا من القرويين بؤساً يوماً بعد يوم،

فما اسرع ما يستنزفون غلال ارضهم،

ويدفعون الى آخر بارة، ما يترتب على اكواخهم من رسوم،

ويأخذون البكاء والعويل، وهجران اوطانهم،

ويتضورون جوعاً، ويموتون عطشاً.

ويخرون صرعى إلى الارض تنتابهم الرياح والامطار،

ويشكون البرد شتاءاً، وحمارة القيظ صيفاً.)

ويستنشقون السموم القتالة المهلكة، وتتراكم على الطرقات جيف الموتى، فمن عشرات الاسر التي عاشت هنا مع جدودي لم تبق اسرة واحدة، وبين الاسر العشرة التي عاشت مع ابي، لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة،... فإذا لم تمت كلها فقد هاجرت ورحلت عن الديار، وبقيت وحدي هنا(٣٧).

ومارست الدولة ايضاً عملية جمع الاموال، فكانت كما وصفت (كالنمرة في جشعها) ومع ذلك استمرت الاعمال التجارية على الرغم من فداحة الرسوم المفروضة عليها.(٣٨)

وقد ازدادت المشاكل سوءاً في اواخر عهد الامبراطورية، حيث الضرائب العالية، والاستغلال، واعمال السخرة، والتمرد في الجيش، وضعف الاباطرة الصينيين المتأخرين لسلالة التانغ كل هذا ادى إلى بروز قوة الحكام المحليين واستقلالهم عن مركز الامبراطورية، فحتى عندما قضى على ثورة (Huang-Chao) ، استمرت الاوضاع متدهورة حتى استطاع احد قادة الجيش في هذه الامبراطورية وهو (ChuWen) من خلع الامبراطور التانغي معلناً سقوط امبراطورية التانغ في سنة ٩٠٧م، ومؤسساً سلالة ليانغ المتأخرة (Later Liang)(٣٩). وقد اشار المسعودي إلى الضعف الذي بلغته سلالة التانغ بعد القضاء على ثورة يانشو فيقول (تغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحية... (و) رضي ملك الصين منهم بالطاعة له، ومكاتبته بالملك، ولم يتأت له المسير إلى سائر اعماله، ولا محاربة من تغلبعلى بلاده، وقنع بما وصفناه وامتنع من ذكرنا من حمل الاموال إليه فتاركهم مسالماً لهم، وعدا كل فريق منهم، على ما يليه على حسب قوته وتمكنه، فعدم انتظام الملك واستقامته على حب من سلف من ملوكهم(٤٠).

هوامش

(1) An Outline History of China, Foreign Language Press, Peking 1958, pp7 ff. (A. O. H. C)

(٢) بروي: تاريخ الحضارات مجلد ٣ ص ٢٥٨. سوف يشار لهذا الكتاب باختصار

(٣) Eberhard: A History of China.

(٤) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص ٢٥٩.

(٥) نفس المصدر: مجلد ٣ ص ٢٦٧.

(6) Schafer: The golden peaches of Samarkand, p40.

(7) Weidenfeld, and Nicolson, Chinese, Porcelain, London 1963 p. 18.

الكنفوشية: من الديانات التي كانت منتشرة في الصين نسبة إلى كنفوشيوس مؤسس هذه الديانة وتنصّ هذه الديانة على ضرورة اتباع العدل في الحكم وان يبدا الاصلاح بالحاكم والامبراطور.

(8) A. O. H. C. ; p. 110-111.

(٩) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص٢٥٩.

(10) Finlay, Mackenzie: Chinese Art 2nd London 1964, p. 14.

(١١) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص٢٥٩ – ٢٦٠.

(12) Simkin: The Traditional Trade of Asia, p.86.

(١٣) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص٢٦٠.

(14) A. O. H. C. p. 118.

(١٥) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج٥ ص ٤٤٩: ابن خلدون: العبر مجلد٣ ص ٣٨٠.

(16) Simkin: op. cit cit. p. 70; A. O. H. C. p. 118.

(١٧) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص ٢٦٠.

(18) A.O.H.C., p. 118-119; Mason, Isaac; 'How Islam enter China» 'M.W» V.1 19, 1929 p. 256.

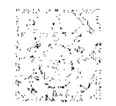
(19) Ibid: p. 119.

(20) Mason: op. cit. p' 256.

(21) A.O.H.C., p. 119-120

(22) Richards: Islam and the Trade of Asia, p. 162.

(23) Eberhard: op. cit. p. 209.
(24) A.O.H.C., p. 122-123.
(25) A.O.H.C., p. 123-124.
(٢٦) المسعودي: مروج الذهب ج١ ١٥٦ - ١٥٧، ابن الاثير: المصدر السابق ج٧ ص٣١٩.
(27) . Schafer : op. cit. p16.
(28) A.O.H.C., p.123-125.
(٢٩) المسعودي: المصدر السابق ج١ ص١٥٧ - ١٥٨.
(30) A.O.H.C., p.117.
(31) Ibid: p. 116-117.
(32) Ibid: p. 122. وحدة وزن صينية تساوي ٦٠٠ تقريباً. (Catty).
وحدة قياس للارض تساوي ١/٦ اكر: Mou).
(٣٣) بروي: المصدر السابق مجلد ٢ ص٢٦٠.
(34) Boyd. Andrew: Chinese Architecture and town planning. London 1962. 1962. p. 17.
(٣٥) بروي: المصدر السابق مجلد ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١.
(٣٦) نفس المصدر: ص ٢٦٥
(٣٧) بروي: المصدر السابق مجلد ٢ ص ٢٦٥.
(٣٨) نفس المصدر: ج٢ ص٢٦٥.
(39) A.O.H.C., p.125-126.
(٤٠) المسعودي: المصدر السابق ج١ ص١٥٨.



جامعة عين شمس.
كلية الآداب.

الامارات الارتقية في ديار بكر

٤٦٥ - ٨١٢هـ (١٠٧٢ - ١٤٠٩م)

(رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي)

باشراف د. حسن حبشي اعدها د. عماد الدين خليل.

تعد منطقة الجزيرة الفراتية مجالاً خصباً لقيام دراسات عديدة توضح الدور الذي لعبته هذه المنطقة في سير الاحداث وتطور الحضارة، نظراً للموقع الذي كانت تحتله والذي أتاح لها ان تكون منطقة اتصال وتفاعل بين العالم الاسلامي والشعوب الاخرى في الحرب والسلام.

وقد ازدادت أهمية المنطقة بمرور الزمن اثر التحركات البشرية التي كانت تقوم بها القبائل الكبرى في آسيا الوسطى صوب الغرب كالديالمة والغز والسلاجقة والخوارزميين والتتر، والقوى التي تفرعت عنهم، إذ كانت الجزيرة

تغدو خلال ذلك هدفاً عسكرياً وبشرياً لتلك القبائل، الامر الذي كان يؤدي إلى تغيرات سياسية وحضارية واسعة النطاق هناك.

وعندما قامت الحروب الصليبية كانت المواقع الجزرية احدى الاهداف الاولى للصليبيين نظراً لموقعها الستراتيجي المشرف على ناحية العراق والشام، وقد تمكنوا من انشاء احدى اماراتهم في المنطقة، ومن ثم وضعت الجزيرة وجهاً لوجه امام مسؤولياتها ازاء الوجود الصليبي.

هذا إلى ان الجزيرة كانت تتمتع بامكانيات اقتصادية واسعة وموقع ممتاز هيّأ لها الاحتكاك مع الجهات المجاورة مما ادى إلى نموّ اجهزتها الادارية وانظمة حكمها وانشطتها الاجتماعية والدينية والثقافية.

تتضمن هذه الدراسة عن الاراتقة فترة زمنية واسعة تبدأ مع مطلع الدولة السلجوقية وتنتهي باضمحلال امبراطورية تيمورلنك وظهور امارتي الخروف الابيض والاسود، مجتازة فترة عاصرت فيها الخلافتين العباسية والفاطمية، والسلاجقة والايوبيين والصليبيين والمماليك والتتر والجلائريين وعدداً من الامارات الصغيرة. وقد تضمنت الرسالة دراسة مفصلة لظروف نشوء الامارات الارتقية وعوامل تدهورها وسقوطها، وتحديد طبيعة علاقاتها الخارجية بالدول والإمارات التي عاصرتها، وتحليل نظمها وانشطتها الحضارية المختلفة.

ويعود الفضل في ظهور الاراتقة على المسرح السياسي والعسكري إلى جدّهم (ارتق ابن اكسك) الذي لعب دوراً هاماً في قيام الدولة السلجوقية اهّله للحصول على مناصب قيادية هامة وتشكيل النواة الاولى لكيان الاراتقة السياسي. وقد تمكن ابناؤه إثر وفاته من تأسيس امارتهم الاولى في ديار بكر في أقصى شمالي الجزيرة الفراتية ، والتي سرعان ما تعرضت للانقسام اثر وفاة مؤسسها سقمان ابن ارتق. ومن ثم تبلور الكيان السياسي للاراتقة في ثلاث امارات، احداهن في ماردين والاخرى في حصن كيفا والثالثة في خرتبرت على تخوم ديار بكر الشمالية تجاه الاناضول.

وعندما اسس عماد الدين زنكي إمارته في الموصل عام ٥٢١هـ وحاول توحيد الامارات الاسلامية لمجابهة الصليبيين، اتخذ الاراتقة منه موقفاً عدائياً خوفاً على ممتلكاتهم، إلّا ان هذا التوتر كاد ان يتلاشى في عهد ابنه نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩هـ). وعندما قامت الدولة الايوبية على يد الناصر صلاح الدين عام ٥٦٩هـ قام الاراتقة بتقديم مساعداتهم العسكرية له في قتاله للصليبيين. إلا انه ما ان توفي حتى ساد الاضطراب علاقات الاراتقة بالايوبيين، وقد استغل هؤلاء ذلك وعملوا على توسيع الشقاق بين الاراتقة وتمكنوا - بذلك - من إسقاط اثنتين من إمارات الاراتقة الثلاث وهما امارة حصن كيفا وإمارة خرتبرت.

وعند ظهور التتر في المنطقة خضع الاراتقة لهم بعد صراع طويل ومقاومة قاسية، ولكن ما ان ضعفت الدولة التترية (الايلخانية) حتى قطع الاراتقة علاقاتهم نهائياً مع هؤلاء واتجهوا صوب المماليك. إلّا ان ظهور تيمورلنك وحلفائه من قادة امارتي الخروف الابيض والاسود وجه ضربة حاسمة للاراتقة وقاد امارتهم الاخيرة في ماردين إلى السقوط.

وتشكل علاقات الاراتقة بالصليبيين اخطر حلقة في تأريخهم السياسي والعسكري، بما تميزت به من فاعلية وتنوع خلال المراحل المختلفة. وقد اتضح بعد التمحيص الدقيق للروايات المختلفة في هذا المجال، عربيها وغربيها، قديمها وحديثها، ان هذه العلاقات اجتازت خمس مراحل كانت تنبثق وتتحدّد بناء على طبيعة الظروف الخارجية والداخلية للاراتقة. وقد اطلقت على المرحلة الاولى اسم (مرحلة المحالفات مع القوى الإسلامية) حيث كان قادة الاراتقة يعملون على الانضمام إلى الاحلاف والتكتلات الإسلامية التي كان السلاجقة يقومون بالاشراف على تنظيمها وتوجيهها لقتال الصليبيين. واطلقت على المرحلة الثانية اسم (مرحلة التحالف مع الصليبيين) حيث برّر بعض زعماء الاراتقة لانفسهم اللجوء إلى الغزاة في مواجهة ضغط السلاجقة وبعض الامراء المحليين. اما المرحلة الثالثة فهي (مرحلة

القيادة) حيث تولى الاراتقة قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين وحققوا عبر سلسلة من المعارك الفاصلة نتائج حاسمة كان لها ابعد الاثر على مجريات الصراع. واما المرحلة الرابعة فهي مرحلة (الانعزال) حيث انكمش الاراتقة خلالها على انفسهم بسبب ظهور عماد الدين زنكي وتوليه امر العمليات ضد الصليبيين.. بعدها يجتاز الاراتقة المرحلة الخامسة التي يمكن ان يطلق عليها اسم (مرحلة الامدادات) حيث سعى الاراتقة خلالها إلى إمداد نور الدين محمود والايوبيين من بعده، بقواتهم في حروبهم ضد الغزاة، ذلك ان الامارات المحلية في المنطقة، وبضمنها الارتقية كانت قد تحولت إلى ما يشبه النظام الاتحادي (الفدرالي) لمجابهة الصليبيين، وقد تحقق ذلك بفضل ظهور شخصيتين قويتين هما نور الدين محمود والناصر صلاح الدين حيث غدا بامكانهما - بموجبه - ان يطلبا المعونات البشرية والمادية من مختلف الامارات الاسلامية ليقوما بدور توجيهها وجهة قيادية موحدة ضد الخطر المشترك.

وكما أسهم الاراتقة بدور خطير في النواحي السياسية والعسكرية طيلة الفترة بين منتصف القرن الخامس ومطلع القرن التاسع الهجري، فإنهم قدموا - كذلك - معطيات حضارية في شتى المجالات مما لا يمكن الاستغناء عن دراستها وتحليلها إذا ما اريد اعطاء صورة متكاملة عن الدور التاريخي لبني ارتق. وهكذا كان لا بد من دراسة مستفيضة لنظم الاراتقة الادارية والاقتصادية، ولطبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية في عهدهم. وتبدو اهمية هذه الدراسة بتوضيحها للجانب السلمي من حياة الاراتقة وفعاليات الاقوام العديدة التي حكموها في المنطقة الجزرية.

وكان لا بدّ من دراسة الخطوط الاساسية لنظم ومعطيات الدول الكبرى التي عاصرها الاراتقة كالسلاجقة والايوبيين والتتر والمماليك، ومقارنتها مع الاشارات الواردة عن الاراتقة لاستخلاص بعض النتائج المهمة. كما كان من الضروري تتبع جذور النظم الارتقية في المنطقة والتي تمتد إلى الفترات التي سبقتهم، حيث اتضح انهم اعتمدوا إلى حدّ كبير على النظم التي كانت سائدة في المنطقة قبيل قيام اماراتهم فيها.

إن الحضارة الارتقية ما هي في حقيقة الامر إلّا وحدة صغيرة متجانسة ضمن وحدة حضارية اكبر تعود في جذورها إلى العهد السلجوقي وتمتد لتؤتي انضج ثمارها في العصر المملوكي.

حاولت ان اتجنب كل ما ليس له علاقة بموضوع البحث مما يخرج به عن نطاقه العام، كما تعهدت ان اتجنب حشر تراجم غير مجدية لسلسلة طويلة من امراء الاراتقة لاستعراض اخلاقهم وسيرهم مما لا يخدم الهدف العام للموضوع. كما اني اعتمدت - إلى حد ما - على اسلوب وحدة الحدث وتطوره لكي اعطي صورة واضحة - قدر الامكان عن حدوده وابعاده مما دفعني في كثير من الاحيان إلى تجاهل الاشارة إلى عدد كبير من امراء الاراتقة الذين استغرقهم ذلك الحدث الذي يعد اكثر عمومية وشمولاً من دور الافراد.

تضمن منهج العرض مقدمة موسّعة عن نطاق البحث، وتحليلاً لانماط المصادر والمراجع المعتمدة، ثم خمسة فصول هي على التوالي:

- قيام الاراتقة وعلاقاتهم بالسلاجقة.
- علاقة الاراتقة بالزنكيين والايوبيين.
- الاراتقة والصليبيون.
- علاقة الاراتقة بالتتر والمماليك وسقوط امارة ماردين.
- النظم والحضارة الارتقية.

انجزتْ الرسالة في كلية آداب جامعة عين شمس تحت اشراف الاستاذ الدكتور حسن حبشي، ونوقشت في السادس من آذار عام ١٩٦٨ من قبل اللجنة المكونة من الاستاذ المشرف رئيساً وعضوية كل من الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة والاستاذ الدكتور ابراهيم احمد العدوي، واجيزت بمرتبة الشرف الاولى.

والاطروحة قيد النشر من قبل مؤسسة الرسالة في بيروت.

د. عماد الدين خليل
المتحف الحضاري - الموصل - العراق

المسابقة

تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي ٧



إلى القراء الاعزاء:

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تفتح بابا خاصاً للقراء، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات، تدعو فيه الى الكتابة المختصرة في موضوع: «تاريخ واسماء ومعالم القرى والاحياء في الوطن العربي». والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية، او ما يعادلها للفائز الاول، واشتراكا سنويا في المجلة للفائز الثاني، على ان تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية او الحي او المعلم وعن تاريخه واسمه وظروفه، او ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة او مظاهر حضارية، واذا امكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او للقرية او لاي مظهر عمراني او اثري فيها، كذلك على ان لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة، مطبوعة على الالة الكاتبة او منسوخة بخط واضح جميل، والّا اضطررنا آسفين لاهمالها.

هذا، واذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة، تطلب من الكتاب الاعزاء ان يتقيدوا باصول الكتابة العلمية وان يشيروا الى مصدر الاقتباس، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة: اذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الاولى والثانية الفائزتان بالمكافأة.

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وان يرسله الينا بالبريد

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة، إذا نشرت او لم تنشر.

تشكر إدارة التحرير جميع المشتركين في «المسابقة» على مساهماتهم ويسرها أن تعلن فوز الانسة منى ابو حلا حمزة المدرسة في السويداء - سوريا بالجائزة الأولى ومقدارها مئة ليرة لبنانية وسترسل لها بالبريد وتنوّه بالرسائل الأخرى، وستنشر جميعها تباعاً في باب القرّاء يكتبون.

القدار يكتبون

شهبا

احدى النواحي في محافظة السويداء (سوريا) وعلى بعد ١٩ كم باتجاه الشمال اسمها القديم (فيبويوليس) باسم بانيها الامبراطور فيليب العربي او انها كانت مسقط راسه وقد حكم هذا الامبراطور بين ٢٤٤ - ٢٤٩م واهتم بالمدينة وزينها واراد ان يجعل منها مدينة منافسة لمدينة روما العظيمة.

اما اثارها فهي كثيرة وهامة وقد بني معظمها زمن حكم فيليب العربي. واشهرها...

المعبد: لم يبق منه الا اربعة اعمدة ذات تيجان كورنثية.

الكليبة(١): امامها ساحة مبلطة عرض واجهتها ٣٠ مترا في داخلها اروقة مستديرة وحنايا وأقواس.

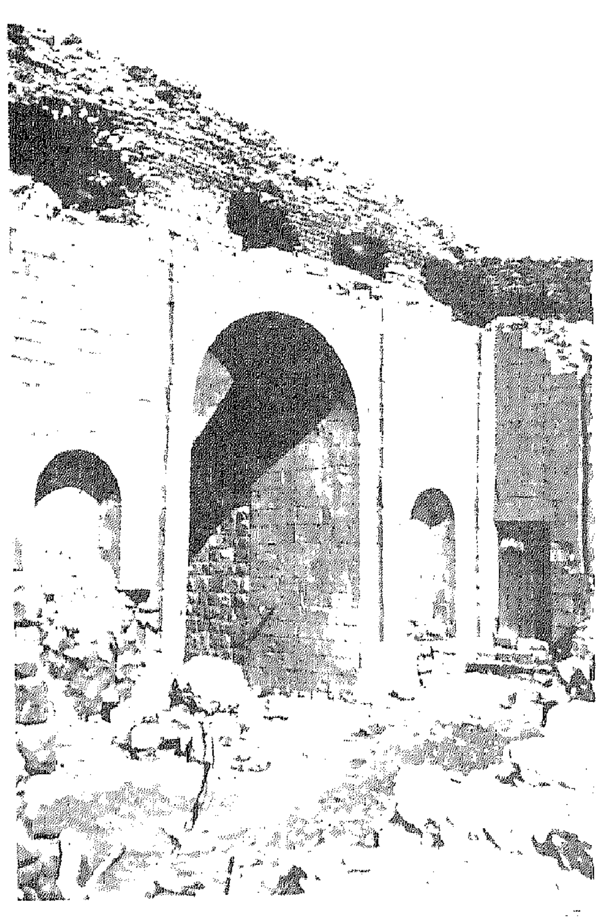
المسرح: في القسم الجنوبي من المدينة ما زال اقسام كبيرة منه محفوظة بصورة جيدة ويعتبر نموذجا واضحا للمسارح الرومانية.

الحمامات: وهي الحمامات القديمة في سوريا لها ثلاثة اقسام للماء البارد والفاتر والساخن وفيها اجران ومغاطس ومقاصير للاستحمام.

المقبرة: يطلق عليها اسم الفيلبيون لانها ربما بنيت كمقبرة لآل الامبراطور فيليب العربي ويظن بأنها تحوي رماد والد ووالدة الامبراطور فيليب وفي واجهة المقبرة كتابة يونانية تقول (الى الاله مارنيوس) وباب المقبرة مزين بنقوش جميلة.

الاسوار والابواب: لم يبق في شهبا الآن سوى بقايا السور ومداخله الاربعة بأبوابه الجميلة التي تدل على عظمتها.

الشوارع: شارعان مبلطان متقاطعان في الساحة العامة لانزال نشاهد فيها قاعة واحدة من قواعد مفترق الطرق (تيترابيل).



آثار الحمامات العامة في شهبا

الفسيفساء: وجدت لوحات جميلة من الموزاييك في شهبا وهي موجودة الان في متاحف السويداء ودمشق.

منى ابو حلا حمزه
معلمة في مدارس السويداء

المراجع

اثارنا: ابو الفرج العش طبعه اولى ص.١٩٦٥ صفحة ٦٥.

جبل العرب: غالب عامر داود النمر مطبوعات المديرية العامة للمتاحف والاثار.

مجلة العمران السورية ايلول ١٩٧٠ مقال محافظة متحف السويداء غالب عامر.

(١) الكليبة: اسم اطلقه المؤرخ دو فوغويه على بعض المعابد الدينية مستخدما الاحرف اللاتينية لعدم وجود ترجمة حرفية لهذه التسمية. ويقول المؤرخون بايين وشارك ديهل ودوم لكرك انه ربما كانت الكليبة اصل الكنائس المسيحية البيزنطية نفسها او اصل قببها على اقل تقدير.

مملكة ابيلا «منعطف التاريخ»

لقد دلت الحفريات التي اجريت في تل مرديخ في سورية ومن خلال اللويحات المكتشفة - انه كانت هنالك دولة متحضرة تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد وان هذه الدولة قد عاصرت الاكاديين والفراعنة وان رقعتها امتدت واتسعت حتى وصلت الى مدينة ماري على الفرات وشملت مناطق فسيحة بلغت المتوسط وقبرص والاناضول، كما وصلت الى البحر الاحمر متجاوزة بلاد سورية وفلسطين انها مملكة ابيلا، انها اكتشاف هذا القرن، القرن العشرين، وهي تضع الآن على كاهلها ركام اربعة واربعين قرنا من عمر الزمان، بعد ان رضيت اخيرا ان تكشف عن خباياها النفيسة وكنوزها الدقيقة

الموقع:

من ينتقل اليوم عبر الطرق التي تربط المدن السورية العريقة: دمشق وحماة وحلب والرقة.. يلاحظ خلالها بسهولة انتشار عدد كبير من التلال فوق السهول المنبسطة الخصبية... وقد انجلى بعض هذه التلال عن مكتشفات اثرية ثمينة، على انه ما من تل بين هذه التلال الكثيرة استطاع ان يبلغ من الشهرة ما بلغه تل مرديخ خلال السنوات العشر الماضية، اذ انجلى عن كشف حضاري باهر بالعثور في جوفه على مدينة ابيلا المفقودة، هذه المدينة التي كانت عامرة مزدهرة قبل ٤٤٠٠ سنة.

اما تل مرديخ نفسه فانه يرتفع ١٧ م عن مستوى السهل وهو يبعد عن مدينة حلب ٥٧ كم نحو بلدة سراقب ٦ كم شمال سورية.

- في عام ١٩٥٥ م عثر فلاح من قرية تل مرديخ على حوض مجرى قديم لعله كان يملأ بماء التطهير المقدس ولكن هذا الامر لم يلفت النظر.
- في عام ١٩٦٤ بدأت بعثة ايطالية اعمال التنقيب في موقع تل مرديخ.
- في عام ١٩٦٨م تم اكتشاف جزء من سور تهدم يحيط بمدينة مجهولة قديمة وقد تخللته بوابة عريضة من جهة الغرب وكذلك عثر على بقية تمثال من البازلت نقشت عليه كتابة اكادية بالطريقة المسمارية وتفيد هذه الكتابة ان التمثال كان هبة مقدمة من ملك ابيلا الى معهد عشتار.
- وخلال عامي ١٩٧٣ - ١٩٧٤ عثر في الموقع نفسه على لويحات فخارية قليلة بلغة مجهولة قريبة.
- اما عام ١٩٧٥ فقد كان حاسما حيث تم العثور في جوف تل مرديخ على غرفة كاملة للارشيف وفي داخل هذه الغرفة تراكمت ١٦٥٠٠ لويحة فخارية حافلة بالكتابات وبفضل عالم اللغات الايطالي (جيوفاني) ثبت ان هذه اللغة المجهولة انما هي لغة مملكة ابيلا وسميت باللغة الايبلوية - ثم توالت الحفريات وتم الكشف مؤخرا عن معالم مدينة ابيلا .

اهم الآثار المكتشفة

- الكنز الباهر المؤلف من ١٦٥٠٠ لويحة يعكف خبراء اللغات القديمة الميتة على قراءة نصوصها بصبر واهتمام. وهذه اللويحات تمثل السجلات الكاملة لمملكة ابيلا.
- سور دائري منيع يبلغ سمك شرفته حوالي ستة امتار ومحيطه ٣ كم ويتخلل السور

اربع بوابات ضخمة تحف بها استحكامات وحصون وتعلوها ابراج وفي كل من هذه البوابات مدخلان او ثلاثة مداخل متجاورة ذات عقود.

– الاكروبول القائم في الوسط فوق بقعة مرتفعة تشرف على المدينة.

– القصر الملكي المربع على الاكروبول وهو صرح من الحجر المنحوت والمصقول.

– المعبد الكبير، وكان قريبا من القصر الملكي، وهو مؤلف من مجموعة قاعات متوالية كانت تجري في رحابها الطقوس.

– الاحياء السكنية في الجوانب المنخفضة من المدينة وتليها الى الاعلى وباتجاه المركز المباني الادارية والمعابد المقامة حول الاكروبول متدرجة على سفح التل المنحدر.

– شوارع رئيسية ممتدة من ابواب المدينة تلتقي عند الاكروبول.

– سدادات من الاجر وهي بقايا اختام كانت تثبت على صناديق الخشب او الجرار بقصد ان تكون محكمة الاغلاق ومختومة وجاهزة للتصدير.

– صور وتماثيل والواح خشبية وفخارية وحجرية وبرونزية متعددة.

واخيرا لا بد من الاشارة الى ان العلماء كانوا قد روا عدد سكان ابيلا بحوالي ٢٥ – ٣٠ الف نسمة حين كانت مملكة ابيلا تضم حوالي ٢٦٠ الف نسمة وان اسم ابيلا – كما ذكر الدكتور عمر الدقاق في كتابه – فلسنا نعرف شيئا عن لفظه ولا عن مدلوله.

المصادر:

– عمر الدقاق: ابيلا منعطف التاريخ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٧٩، ص٥

– مجلة الفيصل السعودية، العدد ٣١ و٣٢

- المرسلة: سوزان علي عطا

العنوان: سورية – دمشق – مخيم اليرموك – جادة سعسع رقم البناء ١

آثار قنوات (كانات القديمة)

قنوات قرية صغيرة تبعد عن السويداء (٧كم)، صنّفها القدماء من المدن العشرة المشهورة تؤلف آثارها متحفاً طبيعيا يقصده السياح من كل مكان، وجدت فيها بعض الادوات الصوّانية من عصر ما قبل التاريخ، وكانت فيما مضى احدى المراكز التجارية النبطية الهامة فيها برج جنائزي نبطي، ومقبرة نبطية في الجنوب الشرقي، على بابها اوراق الكرمة تعبيرا عن عبادة الاله باخوس اله الخمرة عند اليونان.

أشهر آثارها:

الآثار اليونانية والرومانية

ما بقي من الآثار اليونانية مصبوغ بالصبغة الرومانية.

(أ) الكنيسة تحولت فيما بعد الى القصر الاسقفي لمطرانية قنوات، بنيت في الـ ق٤قم.

(ب) معبد آلهة المياه وله ثمانية محاريب يبقى ملآن بالماء طوال السنة.

(ج) اعمدة معبد اله الشمس (هيليوس) ذات التيجان الكورنثية، بنيت في ق.٢ ق.م.

(د) بقايا معبد زوس (سيد السموات) جنوب المدينة ق.٢ ق.م.

(ه) السرايا الاثرية وفيها المعبد الوثني، بنيت في ق.٢. ق.م.

(و) المسرح (أوديون) قسم منه محفور بالصخور مخصص لاقامة الحفلات الموسيقية.

(ز) قبر جنائزي مسقوف بني في ق.٢ ق.م.

(ح) برج قنوات.

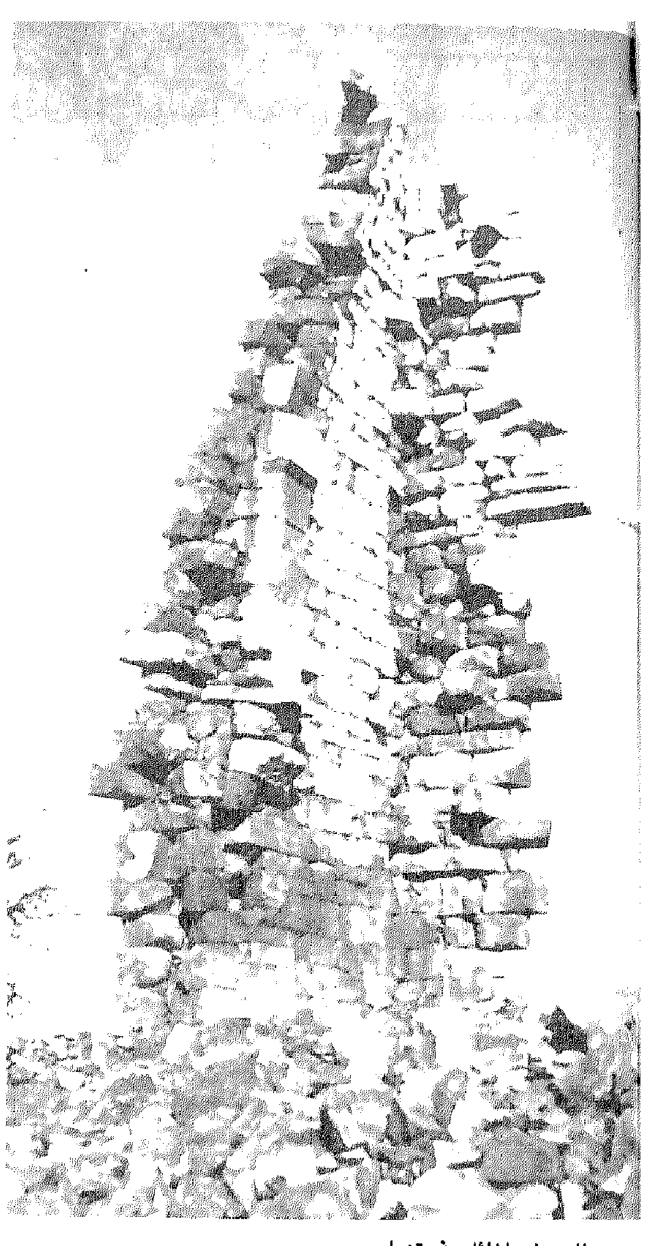
الآثار البيزنطية:

(أ) مسكن احد الحكام العسكريين.
(ب) الكنيسة البيزنطية: بنيت على انقاض المعبد الوثني في ق.٤م.
(ج) خزان مياه قرب معبد زوس.
(د) المقبرة البيزنطية وهي بحالة جيدة.
(ه) مقبرة اكتشفت عام ١٩٦٦ يرجَّح انها مقبرة اساقفة قنوات لوقوعها شرق محراب الكنيسة.

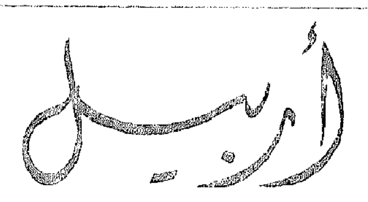
المصادر:

(١) مجلة العمران السورية ايلول ١٩٧٠ مقال بقلم د.علي ابو عساف ص. ٢٧ - ٢٩.
(٢) آثارنا: ابو الفرج العش ص.٦٤ طبعة ١٦٠.
(٣) جبل العرب: غالب عامر - داود النمر - طبعة وزارة الثقافة.
(٤) سلسلة بلادنا - ٢ - محافظة السويداء مقال شبلي العيسمي ص.٧ - ٩ طبعة وزارة الثقافة ١٩٦٢.
(٥) نشرة سياحية عن محافظة السويداء، آثارها ومناطقها السياحية ص.٨ - ١٠ عام ١٩٦٥.

العنوان الدائم
نبيل توفيق حمزة
سوريا السويداء ص.ب. «٣»
العنوان :
سوريا - دمشق - جامعة دمشق كلية الآداب
قسم التاريخ. دبلوم دراسات عليا



الجدار المائل في قنوات.



أربيل

تقع مدينة اربيل شمال العراق . واغلبية السكان من الاكراد اما اسم اربيل فقديم ورد بكثرة في الكتابات التأريخية من مختلف العصور ولعل اربيل المدينة الاشورية الوحيدة التي ظلت مستوطنة

ومحتفظة باسمها القديم إلى يومنا هذا واقدم مرجع ذكرها كان في كتابات الملك السومري شوكلي (نحو ٢٠٠٠ ق . م) بصيغة اوربيلم وجاء ذكرها في الكتابات البابلية والأشورية بصيغة (اربا - ايلو)

التي تعني اربعة آلهة واشتهرت بكونها من مراكز عبادة الالهة الشهيرة عشتار اما النقوش الفارسية المكتوبة بالخط المسماري فسمتها باسم (اربيرا) وسمتها المصادر اليونانية القديمة اربيلا أما المصادر العربية فسمتها (اربيل) مسمى الاكراد بلغتهم مدينتهم (هه ولير) .

– أهم المعالم والمواقع التأريخية في اربيل قلعة اربيل :

لعل من ابرز المعالم ، التأريخية في اربيل القلعة التي احتفظت بشكلها وبكونها آهلة بالسكان الى هذا اليوم ، وليس غريباً . ان يسمى الاثريون اربيل من انها من اقدم المدن الحية في العالم وتبلغ مساحة القلعة (٦٠,٠٠٠)(؟) ثم يبلغ ارتفاعها ١٥٠ قدم والذي يحتمل ان القلعة كانت اكثر ارتفاعاً فيما مضى والقلعة ليست الا بقايا مدينة اشورية مهمة تعرف باسم (اربا – ايلو) مشيدة على تل اثرى اقدم عهداً .

منارة اربيل (المنارة المظفرية) .

وهي تقع الآن في الجهة الجنوبية من المدينة وقد عرفت بالمنارة (المظفرية نسبة إلى سلطان مظفر الدين كوكرل الذي حكم اربيل وتوفى عام (٦٣٠ هـ ١١٣٢ م) ودفن في المدينة المذكورة ترتفع القسم الباقي من المنارة ٣٧ م وكانت تعلو جامعاً في الاصل .

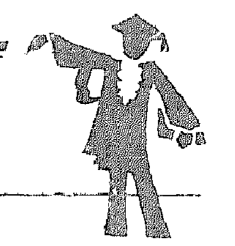
– المناطق السياحية :

وتعتبر مدينة اربيل منطقة سياحية من الدرجة الاولى في العراق ومن المناطق السياحية منطقة الجبلية وفيها الشلالات المائية – وايضاً من المناطق السياحية : التالية :

١ – مصيف صلاح الدين .
٢ – شقلاوة .
٣– شلال كل علي بك .
٤ – جومان .

(١) دليل معهد الفن – ارابيل .
(٢) جريدة كرريه باسم (هاركاري) .
(٣) بعض المنشورات الكردية عن الدار الثقافة والنشر الكردية .

طارق غندر منتك
اربيل – العراق



«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تدعو اصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الالف كلمة والالف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة الى مكان وزمان تقديمها واسم الاستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب امام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى ان تحقق بعضاً من الاهداف والتي اهمها:

اولاً – التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.

ثانياً – التعرّف على توجهات الجامعات العربية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.

ثالثاً – توفير جانب من البيبليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط إلى

الخليج

الكويت : يوميًا ماعدا السبت الإقلاع الساعة ١٨،٣٠

الظهران : يوميًا ماعدا الثلاثاء الإقلاع الساعة ١٨،٢٠

البحرين : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،55

الدوحة : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،55

دبي : يوميًا الإقلاع الساعة ١٨،١٠

ابوظبي : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،٤٠

مسقط : أيام الاثنين - الاربعاء والجمعة الإقلاع الساعة ١٨،١٠

رأس الخيمة : يومي الثلاثاء والسبت الإقلاع الساعة ١٨،١٠

للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «اياتا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ بحمدون ت : ٥-٥٠٥٠٦

مكاتب الحجز تفتح ليلاً نهارًا ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



*بالاشتراك مع طيران الخليج

بريد القراء

فوزي نعمان ابو شقرا - طرابلس / لبنان

تعليقاً على مقالتكم التاريخية الشيقة (معركة سادوفا ١٨٦٦) التي نشرت في العدد رقم ١٥ من السنة الثانية الصادر في كانون الثاني سنة ١٩٨٠، أود ان أبعث لكم بهذه الرواية التي سمعتها بخصوص تلك المعركة الشهيرة من والدي المتخرج من الكلية العسكرية التي أقامتها السلطة المنتدبة في حمص سنة ١٩٢٠ وكان ضابطاً مولعاً بتاريخ المعارك الحربية وسير كبار القادة العسكريين وترجم للعديد منهم. ومما ترجمه كتاب السير هيدل هارت عن (لورنس في بلاد العرب). كان يحفظ دقائق المعارك العسكرية الشهيرة والتفاصيل التكتيكية لكل منها وسمعته مرة يتحدث عن معركة سادوفا فقال:

روى الجنرال هندنبرغ، الذي اصبح فيما بعد مستشاراً لألمانيا قبل تسلم هتلر مقاليد الحكم، وكان القائد الشهير في الحرب العالمية الاولى وقهر مع الجنرال لودندورف بمئتي الف جندي ألماني جيشا روسيا قوامه سبعمائة الف جندي في معركة تاننبرغ العظيمة في بروسيا ، انه كان يحضر مأدبة لكبار القادة البروسيين قبل الحرب العالمية الاولى وكان هندنبرغ ادنى القادة رتبة وكان الجنرال فون مولتكه يترأس المأدبة. نهض فون مولتكه ليغسل يديه فأحضر له جندي الطست ووقف آخر يصب الماء على يديه. في هذه الاثناء كان احد القادة يتكلم فقال: «كنت بجانب امبراطور غليوم الاول حين التقى فريدريك غليوم بعد انتهاء المعركة وقهر الجيش النمساوي فسمعته يقول: عزيزي فريديريك، لقد وصلت في الوقت المناسب ولولا وصولك في تلك اللحظة لكنت الان قتيلاً او في الأسر المشين». وإذا بالقائد فون مولتكه يستدير ويسير بخطوات ارتجت لها ارض القاعة ثم يتقدم من المتكلم ويقول بصوت عال ونبرة صارمة: ما كان له ان يقول ذلك قط. فكل ما حدث في ذلك الوقت كان وفقاً للخطة المرسومة بكل دقة،

ان التفاصيل التي اوردتموها عن المعركة هي تماماً كما كان يرويها والدي عما طالعه عنها ولكن بتفاصيل اوسع

□ نشكر الاخ فوزي على معلوماته القيمة التي القت المزيد من الاضواء على معركة سادوفا الشهيرة.

نبيل توفيق حمزة - السويداء / سوريا

يسرني ان اتقدم اليكم بأسمى التحيات تقديراً واعجابا بجميلكم على جميع المهتمين بالتاريخ والعلم والثقافة في جميع انحاء الوطن العربي على الجهود الكبيرة التي تقدمونها للقراء في كل مكان من خلال نهجكم العلمي الصادق وذلك من خلال المواضيع الجادة التي تحسنون اخراجها لتجعلوا من مجلة «تاريخ العرب والعالم» المجلة الاولى من نوعها والسباقة دوماً الى ما فيه الخير والفائدة للجميع.

□ نشكر الأخ نبيل على عواطفه الطيبة ونؤكد له بأننا لا نزال في اول الطريق ولكننا سنستمر بالعطاء بتأييده ودعمه. بالنسبة للاعداد الناقصة فيمكنك الحصول عليها من دائرة الاشتراكات والثمن خمسة ليرات لبنانية للعدد الواحد.



دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد أحمد

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ٠٠٠ر١٠٠ قاريء

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .
- عدد من المراجعات لطائفة من اهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير — وثائق — يوميات — بيبليوجرافيا
- ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية

ثمن العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا او ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

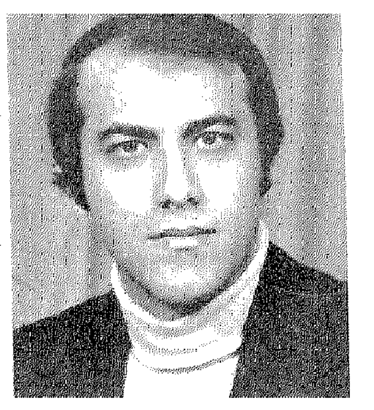
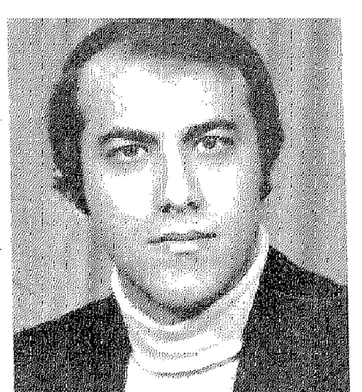
العنوان : جامعة الكويت — كلية الاداب والتربية — الشويخ — دولة الكويت

ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)

هاتف : ٨١٦٨٠٧—٨١٦٧٩٩—٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

رأي حر

حسان حلاق

الباحث والمؤرخ لتاريخ لبنان الحديث والمعاصر تواجهه العديد من التساؤلات حول الاتجاهات السياسية اللبنانية وحول ميولها وخلفياتها التاريخية والسياسية.

لقد اثبتت الاحداث التي مرت بلبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ان هناك عدة اتجاهات سياسية متناقضة تتحكم بمصائر اللبنانيين وإن كان اكثر المؤرخين – وانا منهم – يضعون مسؤولية كبرى فيما حدث على القوى الاستعمارية (بريطانيا وفرنسا مثلا) والتي لعبت دورا بارزا في تعميق الهوة بين اللبنانيين منذ عام ١٨٤٠، ١٨٤٢، ١٨٦٠ وما نجم عن ذلك من انشاء المتصرفيتين ومن ثم متصرفية جبل لبنان. اقول وان كنا نضع اللوم على القوى الاستعمارية غير انه لا يمكن مطلقا ان نجعل من مسؤولية تلك القوى ستارا دائما لكل التناقضات السياسية والطائفية التي اثرت على مستقبل اللبنانيين ومصائرهم. فتلك المخططات الاستعمارية لم تكن لتنجح لو لم يكن اللبنانيون قد قبلوا وانجروا وراء انشاء المتصرفيتين ومن ثم متصرفية جبل لبنان على سبيل المثال لا الحصر.

ومن جهة اخرى فإنه بالرغم من ان بعض الفترات شهدت تعاونا لبنانيا مؤلفا من مختلف الطوائف – وليس من مختلف الاتجاهات السياسية – لا سيما في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وذلك لمحاربة السيطرة العثمانية دون محاربة النفوذ والاطماع الاوروبية، غير ان هذا التعاون نفسه كان مشوبا بالشك والريبة والحذر واكبر مثال على ذلك ما كان يحدث في اطار جمعية بيروت الاصلاحية وبين اعضائها. ومن الاهمية بمكان القول ان القوى البريطانية والفرنسية اتخذت من اللبنانيين ادوات عملية لتكريس نفوذها في المنطقة فمثلا ظهر عام ١٩١٧ اتجاهان سياسيان لبنانيان متناقضان هما:

(١) دعوة لبنانية – بريطانية – حجازية ومركزها القاهرة وتدعمها السياسة البريطانية.

(٢) دعوة لبنانية – فرنسية ومركزها باريس وتدعمها السياسة الفرنسية.

وكانت كل دعوة تعمل اما للمصلحة البريطانية او للمصلحة الفرنسية في لبنان والمنطقة العربية الامر الذي يطرح تساؤلا بالحاح وهو: هل الذين قاوموا النفوذ الفرنسي او حتى العثماني قاوموه من منطلقات وطنية وقومية ام من منطلق بريطاني؟ وهل الذين قاوموا النفوذ البريطاني كان بهدف المصلحة الوطنية ام المصلحة الفرنسية؟

لا شك بأن البعض عملوا لمصلحة لبنان والمنطقة بهدف التحرير والاستقلال، ولكن هناك كثر ايضا ممن عملوا للنفوذ الفرنسي او البريطاني، فعلى سبيل المثال فإن الوثائق البريطانية كشفت لنا عن وثيقة في غاية الاهمية ارسلها عضو مجلس الادارة سليمان كنعان – الذي لا يزال البعض يعتبره وطنيا ومناضلا من اجل لبنان – في ١٧ شباط (فبراير) ١٩٢٢ الى اللورد كيرزون (Curzon) سكرتير الدولة للشؤون الخارجية البريطانية طلب منه بصراحة ضرورة سيطرة بريطانيا على لبنان مبررا ذلك بأن يصبح لبنان «وطنا لكل المسيحيين بسوريا والشرق ويكونوا هؤلاء قوة لانكلترا، ومن صالحهم ان يكونوا تحت ظلها ويستميتوا تحت لوائها...».

وبعد هل يمكن القول بأن مثل هذه الاتجاهات السياسية والطائفية هي لمصلحة لبنان ولمصلحة استقلاله ام كانت لمصلحة النفوذ الاوروبي البريطاني والفرنسي على السواء؟

في العدد المقبل



المافيا:
كيف قضى
موسوليني على
فرعها الإيطالي



امبراطوريات
الصين


هارون الرشيد ووزيره
سوريا
دمشق
ابو صبحي
التيناوي